سورة المطففين

ثلاثون وست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾

اعلم أن اتصال أول هذه السورة بآخر السورة المتقدمة ظاهر؛ لأنه تعالى بيَّن في آخر تلك السورة أن يوم القيامة يوم من صفته أنه لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر كله لله، وذلك يقتضي تهديدًا عظيمًا للعصاة؛ فلهذا أتبعه بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والمراد الزجر عن التطفيف، وهو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية، وذلك لأن الكثير يظهر فيُمنع منه، وذلك القليل إن ظهر أيضًا مُنع منه، فعلمنا أن التطفيف هو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية، **وههنا مسائل:**

المسألة الأولى: الويل كلمة تُذكر عند وقوع البلاء، يقال: ويل لك، وويل عليك.

المسألة الثانية: في اشتقاق لفظ المطفف قولان: الأول: أن طف الشيء هو جانبه وحرفه، يقال: طف الوادي والإناء، إذا بلغ الشيء الذي فيه حرفه ولم يمتلئ فهو طِفَافه وطَفَافه وطَفَفه، ويقال: هذا طف المكيال وطفافه، إذا قارب ملأه لكنه بعد لم يمتلئ، ولهذا قيل: الذي يسيء الكيل ولا يوفيه مطفف، يعني أنه إنما يبلغ الطفاف. **والثاني**: وهو قول الزجاج: أنه إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف؛ لأنه يكون الذي لا يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف، **وههنا سؤالات:**

الأول: وهو أن الاكتيال الأخذ بالكيل، كالاتزان الأخذ بالوزن، ثم إن اللغة المعتادة أن يقال: اكتلت من فلان، ولا يقال: اكتلت على فلان، فما الوجه فيه ههنا؟ **الجواب من وجهين الأول**: لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً فيه إضرار بهم وتحامل عليهم، أقيم على مقام من الدالة على ذلك. **الثاني**: قال الفراء: المراد اكتالوا من الناس، و(على) و(مِن) في هذا الموضع يعتقبان لأنه حق عليه، فإذا قال اكتلت عليك، فكأنه قال أخذت ما عليك، وإذا قال: اكتلت منك، فهو كقوله: استوفيت منك.

السؤال الثاني: هو أن اللغة المعتادة أن يقال: كالوا لهم، أو وزنوا لهم، ولا يقال كلته ووزنته فما وجه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾؟ **والجواب من وجوه: الأول**: أن المراد من قوله: (كالوهم أو وزنوهم) كالوا لهم أو وزنوا لهم، فحذف الجار وأوصل الفعل. قال الكسائي

والفراء: وهذا من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم، يقولون: زني كذا، كلي كذا. ويقولون صدتك وصدت لك، وكسبتك وكسبت لك، فعلى هذا الكناية في كالوهم ووزنوهم في موضع نصب. **الثاني:** أن يكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، والتقدير: وإذا كالوا مكيلهم، أو وزنوا موزونهم. **الثالث:** يروى عن عيسى بن عمر وحمزة أنهما كانا يجعلان الضميرين توكيدًا لما في كالوا ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادا، وزعم الفراء والزجاج أنه غير جائز؛ لأنه لو كان بمعنى كالوهم لكان في المصحف ألف مثبتة قبل (هم) واعترض صاحب (الكشاف) على هذه الحجة، فقال: إن خط المصحف لم يراع في كثير منه حد المصطلح عليه في علم الحظ. والجواب أن إثبات هذه الألف لو لم يكن معتادًا في زمان الصحابة فكان يجب إثباتها في سائر الأعصار، لما أنا نعلم مبالغتهم في ذلك، فثبت أن إثبات هذه الألف كان معتادًا في زمان الصحابة فكان يجب إثباته ههنا.

السؤال الثالث: ما السبب في أنه قال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا﴾ ولم يقل إذا اتزنوا، ثم قال: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ فجمع بينهما؟ **الجواب:** أن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع، فأحدهما يدل على الآخر

السؤال الرابع: اللغة المعتادة أن يقال: خسرته، فما الوجه في أخسرته؟ **الجواب:** قال الزجاج: أخسرت الميزان وخسرته سواء، أي نقصته، وعن المؤرج: يُخسرون: ينقصون بلغة قريش.

المسألة الثالثة: عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قدم نبي الله المدينة كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأحسنوا الكيل بعد ذلك، وقيل: كان أهل المدينة تجارًا يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة، فنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ فقرأها عليهم، وقال: «خَمْسٌ بِخَمْسٍ» قيل: يا رسول الله، وما خمس بخمس؟ قال: «**مَا نقص قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ، وَمَا ظَهَرَتْ فِيهِمُ الْفَاحِشَةُ إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الْمَوْتُ، وَلاَ طَفَّفُوا الْكَيْلَ إِلاَّ مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَلاَ مَنَعُوا الزَّكَاةَ إِلاَّ حُبِسَ عَنْهُمُ الْمَطَرُ**»(١).

المسألة الرابعة: الذم إنما لحقهم بمجموع أنهم يأخذون زائدًا، ويدفعون ناقصًا، ثم اختلف العلماء: فقال بعضهم: هذه الآية دالة على الوعيد، فلا تتناول إلا إذا بلغ التطفيف حد الكثير، وهو نصاب السرقة. وقال آخرون بل ما يصغر ويكبر دخل تحت الوعيد، لكن بشرط أن لا يكون معه توبة ولا طاعة أعظم منها. وهذا هو الأصح.

(١) حسن: أخرجه الطبراني في (الكبير) (١١/ ٤٥) حديث رقم (١١٠١٤) من طريق إسحاق بن عبد الله بن كيسان حدثني أبي عن الضحاك بن مزاحم عن مجاهد وطاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما... به والروياني في (مسنده) (٢/ ٤١٥) حديث رقم (١٤٢٣) من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمر... به، وأورده الألباني في (صحيح الجامع) (٥٥٥١) وقال: حسن. والهيثمي في (المجمع) (٣/ ٢٠٣) وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزي، لينه الحاكم وبقية رجاله موثقون وفيهم كلام.

المسألة الخامسة: احتج أصحاب الوعيد بعموم هذه الآية، قالوا: وهذه الآية واردة في أهل الصلاة لا في الكفار، والذي يدل عليه وجهان. الأول: أنه لو كان كافرًا لكان ذلك الكفر أَوْلى باقتضاء هذا الويل من التطفيف، فلم يكن حينئذٍ للتطفيف أثر في هذا الويل، لكن الآية دالة على أن الموجب لهذا الويل هو التطفيف. الثاني: أنه تعالى قال للمخاطبين بهذه الآية: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٤، ٥] فكأنه تعالى هدد المطففين بعذاب يوم القيامة، والتهديد بهذا لا يحصل إلا مع المؤمن، فثبت بهذين الوجهين أن هذا الوعيد مختص بأهل الصلاة. والجواب عنه ما تقدم مرارًا، ومن لواحق هذه المسألة أن هذا الوعيد يتناول من يفعل ذلك ومن يعزم عليه إذ العزم عليه أيضًا من الكبائر.

واعلم أن أمر المكيال والميزان عظيم؛ وذلك لأن عامة الخلق يحتاجون إلى المعاملات وهي مبنية على أمر المكيال والميزان؛ فلهذا السبب عظَّم الله أمره فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩] وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وعن قتادة: «**أَوْفِ يَا بْنَ آدَمَ الْكَيْلَ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُوَفَّى لَكَ، وَاعْدِلْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُعْدَلَ لَكَ**» وعن الفضيل: بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة. وقال أعرابي لعبد الملك بن مروان: قد سمعت ما قال الله تعالى في المطففين! أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم في أخذ القليل، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ الكثير، وتأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن؟!

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

اعلم أنه تعالى وبخ هؤلاء المطففين فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يطففون ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ وهو يوم القيامة، وفي الظن ههنا قولان: الأول: أن المراد منه العلم، وعلى هذا التقدير يحتمل أن يكون المخاطبون بهذا الخطاب من جملة المصدقين بالبعث، ويحتمل أن لا يكونوا كذلك، أما الاحتمال الأول: فهو ما روي أن المسلمين من أهل المدينة وهم الأوس والخزرج كانوا كذلك، وحين ورد النبي ﷺ كان ذلك شائعًا فيهم، وكانوا مصدقين بالبعث والنشور، فلا جرم ذُكروا به، وأما إن قلنا بأن المخاطبين بهذه الآية ما كانوا مؤمنين بالبعث إلا أنهم كانوا متمكنين من الاستدلال عليه؛ لما في العقول من إيصال الجزاء إلى المحسن والمسيء، أو إمكان ذلك إن لم يثبت وجوبه، وهذا مما يجوز أن يخاطب به من ينكر البعث، والمعنى ألا يتفكرون حتى يعلموا أنهم مبعوثون، لكنهم قد أعرضوا عن التفكر، وأراحوا أنفسهم عن متاعبه ومشاقه، وإنما يجعل العلم الاستدلال ظنًّا، لأن أكثر العلوم الاستدلالية راجع إلى الأغلب في الرأي، ولم يكن كالشك الذي يعتدل الوجهان فيه، لا جرم سمي ذلك ظنًّا. القول الثاني: أن المراد من الظن ههنا

هو الظن نفسه لا العلم، ويكون المعنى أن هؤلاء المطففين هب أنهم لا يجزمون بالبعث ولكن لا أقل من الظن، فإن الأليق بحكمة الله ورحمته ورعايته مصالح خلقه أن لا يهمل أمرهم بعد الموت بالكلية، وأن يكون لهم حشر ونشر، وأن هذا الظن كاف في حصول الخوف، كأنه سبحانه وتعالى يقول: هب أن هؤلاء لا يقطعون به أفلا يظنونه أيضًا؟!

فأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرىء (يَوْمَ) بالنصب والجر، أما النصب فقال الزجاج: يوم منصوب بقوله: ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾ والمعنى ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة. وقال الفراء: وقد يكون في موضع خفض إلا أنه أضيف إلى (يَفعل) فنُصب، وهذا كما ذكرنا في قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ [الانفطار: ١٩] وأما الجر فلكونه بدلاً من ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

المسألة الثانية: هذا القيام له صفات:

الصفة الأولى: سببه، وفيه وجوه: أحدها: وهو الأصح أن الناس يقومون لمحاسبة رب العالمين، فيظهر هناك هذا التطفيف الذي يُظن أنه حقير، فيعرف هناك كثرته واجتماعه، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] **وثانيها:** أنه سبحانه يرد الأرواح إلى أجسادها فتقوم تلك الأجساد من مراقدها، فذاك هو المراد من قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **وثالثها:** قال أبو مسلم معنى: ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ هو كقوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] أي لعبادته، فقوله: ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لمحض أمره وطاعته لا لشيء آخر، على ما قرره في قوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

الصفة الثانية: كيفية ذلك القيام، روي عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: «**يَقُومُ أَحَدُكُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ**» (١) وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة، فلما بلغ قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بكى نحيبًا حتى عجز عن قراءة ما بعده.

الصفة الثالثة: كمية ذلك القيام، روى عنه عليه السلام أنه قال: «**يَقُومُ النَّاسُ مِقْدَارَ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، لَا يُؤْمَرُ فِيهِمْ بِأَمْرٍ**» (٢) وعن ابن مسعود: «**يَمْكُثُونَ أَرْبَعِينَ عَامًا ثُمَّ يُخَاطَبُونَ**» (٣) وقال

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (تفسير سورة المطففين) (٤/ ١٨٨٤) حديث رقم (٤٦٥٤) من طريق مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر... به، ورواه ابن الأنباري في (المعجم) (١/ ٣٥) من طريق إبراهيم بن طهمان قال: حدثني موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر... به، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٩٥/ ٢٨٦٢) من طريق يحيى بن سعيد عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر... به والطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٢٧٩) من طريق عيسى بن يونس عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر... به وبيبي في (جزئها) (١/ ٥٣) من طريق سليمان بن حبان أبي خالد الأحمر عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر... به.

(٢) أورده ابن عادل في (تفسير اللباب) (١٦/ ٢٦٢) وقال: وفي الحديث... ثم ذكره من غير إسناد.

(٣) أخرجه الطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٢٨١) من طريق يحيى بن طلحة اليربوعي قال: حدثنا شريك عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن مسعود... به، وفي إسناده يحيى بن طلحة اليربوعي قال الحافظ: لين الحديث.

ابن عباس: وهو في حق المؤمنين كقدر انصرافهم من الصلاة.

واعلم أنه سبحانه جمع في هذه الآية أنواعًا من التهديد، فقال أولاً: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] وهذه الكلمة تُذكر عند نزول البلاء، ثم قال ثانيًا: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار، ثم قال ثالثًا: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ والشيء الذي يستعظمه الله لا شك أنه في غاية العظمة، ثم قال رابعًا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفيه نوعان من التهديد: أحدهما: كونهم قائمين مع غاية الخشوع ونهاية الذلة والانكسار. والثاني: أنه وصف نفسه بكونه ربًّا للعالمين.

ثم ههنا سؤال وهو كأنه قال قائل: كيف يليق بك مع غاية عظمتك أن تهيئ هذا المحفل العظيم الذي هو محفل القيامة لأجل الشيء الحقير الطفيف؟ فكأنه سبحانه يجيب فيقول: عظمة الإلهية لا تتم إلا بالعظمة في القدرة والعظمة في الحكمة، فعظمة القدرة ظهرت بكوني ربًّا للعالمين، لكن عظمة الحكمة لا تظهر إلا بأن أنتصف للمظلوم من الظالم بسبب ذلك القدر الحقير الطفيف، فإن الشيء كلما كان أحقر وأصغر كان العلم الواصل إليه أعظم وأتم، فلأجل إظهار العظمة في الحكمة أحضرت خلق الأولين والآخرين في محفل القيامة، وحاسبت المطفف لأجل ذلك القدر الطفيف.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: لفظ المطفف يتناول التطفيف في الوزن والكيل، وفي إظهار العيب وإخفائه، وفي طلب الإنصاف والانتصاف، ويقال: من لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه، فليس بمنصف، والمعاشرة والصحبة من هذه الجملة، والذي يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه – من هذه الجملة، ومن طلب حق نفسه من الناس ولا يعطيهم حقوقهم كما يطلبه لنفسه، فهو من هذه الجملة، والفتى من يقضي حقوق الناس ولا يطلب من أحد لنفسه حقًّا.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ ﴾

واعلم أنه سبحانه لما بين عظم هذا الذنب أتبعه بذكر لواحقه وأحكامه:

فأولها: قوله: ﴿ كَلَّآ ﴾ والمفسرون ذكروا فيه وجوهًا: الأول: أنه ردع وتنبيه، أي ليس الأمر على ماهم عليه من التطفيف والغفلة، عن ذكر البعث والحساب فليرتدعوا، وتمام الكلام ههنا.

الثاني: قال أبو حاتم: ﴿ كَلَّآ ﴾ ابتداء يتصل بما بعده على معنى حقًّا ﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ وهو قول الحسن.

النوع الثاني: أنه تعالى وصف كتاب الفجار بالخيبة والحقارة على سبيل الاستخفاف بهم.

وههنا سؤالات:

السؤال الأول: السِّجين اسم علم لشيء معين أو اسم مشتق عن معنى؟ قلنا: فيه قولان:

الأول: وهو قول جمهور المفسرين: أنه اسم علم على شيء معين، ثم اختلفوا فيه: فالأكثرون على أنه الأرض السابعة السفلى، وهو قول ابن عباس في رواية عطاء وقتادة ومجاهد والضحاك وابن زيد، وروى البراء أنه عليه السلام قال: «سِجِّينٌ أَسْفَلُ سَبْعِ أَرَضِينَ»[(١)] قال عطاء الخراساني: وفيها إبليس وذريته، وروى أبو هريرة أنه عليه السلام قال: «سِجِّينٌ جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ»[(٢)] وقال الكلبي ومجاهد: سجين صخرة تحت الأرض السابعة.

القول الثاني: أنه مشتق، وسمي سِجينًا فعيلاً من السجن، وهو الحبس والتضييق، كما يقال: فِسِّيق من الفسق، وهو قول أبي عبيدة والمبرد والزجاج، قال الواحدي: وهذا ضعيف والدليل على أن سجينًا ليس مما كانت العرب تعرفه قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت وقومك. ولا أقول: هذا ضعيف، فلعله إنما ذُكر ذلك تعظيمًا لأمر سجين، كما في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾[الانفطار: ١٧] قال صاحب (الكشاف): والصحيح أن السِّجين فِعيل، مأخوذ من السجن، ثم إنه ههنا اسم علم منقول، من وصف كحاتم وهو منصرف؛ لأنه ليس فيه إلا سببٍ واحد وهو التعريف. إذا عرفت هذا فنقول: قد ذكرنا أن الله تعالى أجرى أمورًا مع عباده على ما تعارفوه من التعلمل فيما بينهم وبين عظمائهم، فالجنة موصوفة بالعلو والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المقربين، والسجين موصوف بالتسفل والظلمة والضيق وحضور الشياطين الملعونين، ولا شك أن العلو والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المقربين، كل ذلك من صفات الكمال والعزة، وأضدادها من صفات النقص والذلة، فلما أريد وصف الكفرة وكتابهم بالذلة والحقارة، قيل: إنه في موضع التسفل والظلمة والضيق وحضور الشياطين، ولما وصف كتاب الأبرار بالعزة قيل: إنه ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾[المطففين: ١٨]. و﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[المطففين: ٢١].

السؤال الثاني: قد أخبر الله عن كتاب الفجار بأنه ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ ثم فسر سجينًا بـ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ فكأنه قيل: إن كتابهم في كتاب مرقوم فما معناه؟ أجاب القفال: فقال: قوله: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ ليس تفسيرًا لسجين، بل التقدير: كلا إن كتاب الفجار لفي سجين، وإن كتاب الفجار كتاب مرقوم،

---

(١) رواه البغوي في (تفسيره) (٨/ ٣٦٣)، والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٤/ ٣٠) كلاهما من طريق موسى بن محمد، حدثنا الحسن بن علوية، أخبرنا إسماعيل بن عيسى حدثنا المسيب، حدثنا الأعمش عن المنهال عن زاذان عن البراء... به.

(٢) رواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٤/ ٣٢) من طريق مسعود بن موسى بن مشكان قال: حدثنا نضر بن خزيمة عن شعيب بن صفوان عن القرظي عن أبي هريرة... به، وفي مسنده شعيب بن صفوان قال ابن حجر: مقبول. وعند الذهبي في الكشف قال: وثق. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه.

فيكون هذا وصفًا لكتاب الفجار بوصفين: أحدهما: أنه في سجين، والثاني: أنه مرقوم، ووقع قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ فيما بين الوصفين معترضًا، والله أعلم. والأَوْلى أن يقال: وأي استبعاد في كون أحد الكتابين في الآخر، إما بأن يوضع كتاب الفجار في الكتاب الذي هو الأصل المرجوع إليه في تفصيل أحوال الأشقياء، أو بأن ينقل ما في كتاب الفجار إلى ذلك الكتاب المسمى بالسجين، وفيه وجه ثالث: وهو أن يكون المراد من الكتاب: الكتابة فيكون في المعنى: كتابة الفجار في سجين، أي كتابة أعمالهم في سجين، ثم وصف السجين بأنه ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ فيه جميع أعمال الفجار.

السؤال الثالث: ما معنى قوله: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾؟ قلنا: فيه وجوه: **أحدها:** مرقوم، أي مكتوبة أعمالهم فيه. **وثانيها:** قال قتادة: رُقم لهم بسوء، أي كُتب لهم بإيجاب النار. **وثالثها:** قال القفال: يحتمل أن يكون المراد أنه جعل ذلك الكتاب مرقومًا، كما يرقم التاجر ثوبه علامة لقيمته، فكذلك كتاب الفاجر جُعل مرقومًا برقم دال على شقاوته. **ورابعها:** المرقوم ههنا المختوم، قال الواحدي: وهو صحيح لأن الختم علامة، فيجوز أن يسمى المرقوم مختومًا. **وخامسها:** أن المعنى كتاب مثبت عليهم كالرقم في الثوب لا ينمحي.

أما قوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ **ففيه وجهان: أحدهما:** أنه متصل بقوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] ويل لمن كذب بأخبار الله. **والثاني:** أن قوله: ﴿مَّرۡقُومٞ﴾ معناه رُقم برقم يدل على الشقاوة يوم القيامة، ثم قال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ في ذلك اليوم من ذلك الكتاب. ثم إنه تعالى أخبر عن صفة من يكذب بيوم الدين فقال: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ومعناه أنه لا يكذب بيوم الدين إلا من كان موصوفًا بهذه الصفات الثلاثة: **فأولها:** كونه معتديًا، والاعتداء هو التجاوز عن المنهج الحق. **وثانيها:** الأثيم وهو مبالغة في ارتكاب الإثم والمعاصي. وأقول: الإنسان له قوتان: قوة نظرية وكمالها في أن يعرف الحق لذاته، وقوة عملية وكمالها في أن يعرف الخير لأجل العمل به، وضد الأول أن يصف الله تعالى بما لا يجوز وصفه به، فإن كل من منع من إمكان البعث والقيامة إنما منع إما لأنه لم يعلم تعلق علم الله بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات، أو لأنه لم يعلم تعلق قدرة الله بجميع الممكنات. فهذا الاعتداء ضد القوة العملية، هو الاشتغال بالشهوة والغضب وصاحبه هو الأثيم، وذلك لأن المشتغل بالشهوة والغضب قلما يتفرغ للعبادة والطاعة، وربما صار ذلك مانعًا له عن الإيمان بالقيامة.

وأما الصفة الثالثة: للمكذبين بيوم الدين فهو قوله: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ والمراد منه الذين ينكرون النبوة، والمعنى إذا تلي عليه القرآن قال: (أساطير الأولين) وفيه وجهان: أحدهما: أكاذيب الأولين. والثاني: أخبار الأولين وأنه عنهم أُخذ، أي يقدح في كون القرآن من عند الله بهذا الطريق. وههنا بحث آخر: وهو أن هذه الصفات الثلاثة هل المراد منها

شخص معين أولاً؟ فيه قولان: الأول: وهو قول الكلبي: أن المراد منه الوليد بن المغيرة. وقال آخرون: إنه النضر بن الحارث. واحتج من قال: (إنه الوليد) بأنه تعالى قال في سورة (القلم): ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠] إلى قوله ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: ١٢] إلى قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥] فقيل: إنه الوليد بن المغيرة، وعلى هذا التقدير يكون المعنى: وما يكذب بيوم الدين من قريش أو من قومك إلا كل معتد أثيم، وهذا هو الشخص المعين. **والقول الثاني:** أنه عام في حق جميع الموصوفين بهذه الصفات.

أما قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فالمعنى ليس الأمر كما يقوله من أن ذلك أساطير الأولين، بل أفعالهم الماضية صارت سببًا لحصول الرين في قلوبهم. ولأهل اللغة في تفسير لفظة الرين وجوه، ولأهل التفسير وجوه أخر: **أما أهل اللغة:** فقال أبو عبيدة: ران على قلوبهم: غلب عليها، والخمر ترين على عقل السكران، والموت يرين على الميت فيذهب به. قال الليث: ران النعاس والخمر في الرأس، إذا رسخ فيه، وهو يريد رينًا، وريونًا، ومن هذا حديث عمر في أسيفع جهينة لما ركبه الدين (أَصْبَحَ قَدْ رِينَ بِهِ) قال أبو زيد: يقال: رين بالرجل يران به رينًا، إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه. قال أبو معاذ النحوي: الرين أن يسْوَد القلب من الذنوب، والطبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين، والأقفال أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب. قال الزجاج: ران على قلوبهم بمعنى غطى على قلوبهم، يقال: ران على قلبه الذنب يرين رينًا، أي غشيه، والرين كالصدإ يغشى القلب ومثله الغين. **أما أهل التفسير فلهم وجوه:** قال الحسن ومجاهد: هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِيَّاكُمْ وَالْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ الذَّنْبَ عَلَى الذَّنْبِ يُوقِدُ عَلَى صَاحِبِهِ جَحِيمًا ضَخْمَةً**»(١) وعن مجاهد: القلب كالكف، فإذا أذنب الذنب انقبض، وإذا أذنب ذنبًا آخر انقبض ثم يطبع عليه وهو الرين. وقال آخرون: كلما أذنب الإنسان حصلت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله، وروي هذا مرفوعًا في حديث أبي هريرة.

قلت: لا شك أن تكرر الأفعال سبب لحصول ملكة نفسانية، فإن من أراد تعلم الكتابة فكلما كان إتيانه بعمل الكتابة، أكثر كان اقتداره على عمل الكتابة أتم، إلى أن يصير بحيث يقدر على الإتيان بالكتابة من غير روية ولا فكرة، فهذه الهيئة النفسانية لما تولدت من تلك الأعمال الكثيرة كان لكل واحد من تلك الأعمال أثر في حصول تلك الهيئة النفسانية، إذا عرفت هذا فنقول: إن الإنسان إذا واظب على الإتيان ببعض أنواع الذنوب، حصلت في قلبه ملكة نفسانية على الإتيان بذلك الذنب، ولا معنى للذنب إلا ما يشغلك بغير الله، وكل ما يشغلك بغير الله فهو ظلمة،

---

(١) إسناده جيد: أخرجه أحمد في (مسنده) (٥/ ١٧٨) من طريق الخزاعي وأبي سعيد . . . به ثلاثتهم (الخزاعي، وأبو سعيد، منصور) عن سعيد بن مسلم . . . به، والدارمي في كتاب (الرقاق) باب (في التوبة) (٢/ ١٨٦) حديث رقم (٢٧٢٦) عن مالك عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن عوف بن الحارث عن عائشة . . . بنحوه.

فإذن الذنوب كلها ظلمات وسواد، ولكل واحد من الأعمال السالفة التي أورث مجموعها حصول تلك الملكة أثر في حصولها، فذلك هو المراد من قولهم: (كلما أذنب الإنسان حصلت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب) ولما كانت مراتب الملكات في الشدة والضعف مختلفة، لا جرم كانت مراتب هذا السواد والظلمة مختلفة، فبعضها يكون رينًا وبعضها طبعًا وبعضها أقفالاً، قال القاضي: ليس المراد من الرين أن قلبهم قد تغير وحصل فيه منع، بل المراد أنهم صاروا لإيقاع الذنب حالاً بعد حال متجرئين عليه وقويت دواعيهم إلى ترك التوبة وترك الإقلاع، فاستمروا وصعب الأمر عليهم، ولذلك بَيَّن أن علة الرين كسبهم، ومعلوم إن إكثارهم من اكتساب الذنوب لا يمنع من الإقلاع والتوبة، وأقول: قد بينا أن صدور الفعل حال استواء الداعي إلى الفعل والداعي إلى الترك محال لامتناع ترجيح الممكن من غير مرجح، فبأن يكون ممتنعًا حال المرجوحية كان أَوْلى، ولما سلم القاضي أنهم صاروا بسبب الأفعال السالفة راجحًا، فوجب أن يكون الإقلاع في هذه الحالة ممتنعًا، وتمام الكلام قد تقدم مرارًا في هذا الكتاب.

أما قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فاعلم أنهم ذكروا في ﴿كَلَّآ﴾ وجوهًا: **أحدها:** قال صاحب (الكشاف): ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن الكسب الرائن عن قلوبهم. **وثانيها:** قال القفال: إن الله تعالى حكى في سائر السور عن هذا المعتدي الأثيم أنه كان يقول: إن كانت الآخرة حقًّا، فإن الله تعالى يعطيه مالاً وولدًا، ثم إنه تعالى كَذَّبه في هذه المقالة فقال: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨] وقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ولما كان هذا مما قد تردد ذكره في القرآن، ترك الله ذكره ههنا وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي ليس الأمر كما يقولون من أن لهم في الآخرة حسنى بل هم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون. **وثانيها:** أن يكون ذلك تكريرًا وتكون ﴿كَلَّآ﴾ هذه هي المذكورة في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾.

أما قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فقد احتج الأصحاب على أن المؤمنين يرونه سبحانه، قالوا: ولولا ذلك لم يكن للتخصيص فائدة.

وفيه تقرير آخر وهو أنه تعالى ذكر هذا الحجاب في معرض الوعيد والتهديد للكفار، وما يكون وعيدًا وتهديدًا للكفار لا يجوز حصوله في حق المؤمن، فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب في حق المؤمنْ أجابت المعتزلة عن هذا من وجوه: **أحدها:** قال الجبائي: المراد أنهم عن رحمة ربهم محجوبون، أي ممنوعون، كما يقال في الفرائض: الإخوة يحجبون الأم على الثلث، ومن ذلك يقال لمن يمنع عن الدخول: (هو حاجب) لأنه يمنع من رؤيته. **وثانيها:** قال أبو مسلم: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي غير مقربين، والحجاب الرد وهو ضد القبول، والمعنى هؤلاء المنكرون للبعث غير مقبولين عند الله، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧] **وثالثها:** قال القاضي: الحجاب ليس عبارة عن عدم الرؤية، فإنه قد يقال: (حُجب فلان عن الأمير) وإن كان قد رآه من البعد، وإذا لم يكن الحجاب عبارة عن عدم الرؤية سقط الاستدلال، بل يجب أن يُحمل على صيرورته ممنوعًا عن وجدان رحمته تعالى. **ورابعها:** قال صاحب (الكشاف): كونهم محجوبين عنه تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم؛ لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للمكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا المهانون عندهم. **والجواب:** لا شك أن من مُنع من رؤية شيء يقال: إنه حُجب عنه، وأيضًا من منع من الدخول على الأمير يقال: إنه حجب عنه، وأيضًا يقال الأم حجبت عن الثلث بسبب الإخوة، وإذا وجدنا هذه الاستعمالات وجب جعل اللفظ حقيقة في مفهوم مشترك بين هذه المواضع دفعًا للاشتراك في اللفظ، وذلك هو المنع، ففي الصورة الأولى حصل المنع من الرؤية، وفي الثانية حصل المنع من الوصول إلى قربه، وفي الثالثة حصل المنع من استحقاق الثلث، فيصير تقدير الآية: كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لممنوعون، والمنع إنما يتحقق بالنسبة إلى ما يثبت للعبد بالنسبة إلى الله تعالى، وهو إما العلم وإما الرؤية، ولا يمكن حمله على العلم؛ لأنه ثابت بالاتفاق للكفار، فوجب حمله على الرؤية. أما صرفه إلى الرحمة فهو عدول عن الظاهر من غير دليل، وكذا ما قاله صاحب (الكشاف): ترك للظاهر من غير دليل. ثم الذي يؤكد ما ذكرناه من الدليل أقوال المفسرين، قال مقاتل: معنى الآية أنهم بعد العرض والحساب لا يرون ربهم، والمؤمنون يرون ربهم، وقال الكلبي: يقول إنهم عن النظر إلى رؤية ربهم لمحجوبون، والمؤمن لا يُحجب عن رؤية ربه. وسئل مالك بن أنس عن هذه الآية فقال: لما حجب أعداءه فلم يروه لا بد وأن يتجلى لأوليائه حتى يروه. وعن الشافعي لما حجب قومًا بالسخط دل على أن قومًا يرونه بالرضا.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ فالمعنى لما صاروا محجوبين في عرصة القيامة إما عن رؤية الله على قولنا، أو عن رحمة الله وكرامته على قول المعتزلة، فعند ذلك يؤمر بهم إلى النار، ثم إذا دخلوا النار، وبُخوا بتكذيبهم بالبعث والجزاء فقيل لهم: ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا، والآن قد عاينتموه فذوقوه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الفجار المطففين، أتبعه بذكر حال الأبرار الذين لا يطففون، فقال: ﴿كَلَّآ﴾ أي ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار من إنكار البعث ومن أن كتاب الله أساطير الأولين. واعلم أن لأهل اللغة في لفظ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ أقوالاً، ولأهل التفسير أيضًا أقوالاً:

أما أهل اللغة قال أبو الفتح الموصلي: ﴿عِلِّيِّينَ﴾ جمع عِلي وهو فِعِّيل من العلو. وقال الزجاج: إعراب هذا الاسم كإعراب الجمع لأنه على لفظ الجمع، كما تقول: هذه قنسرون

ورأيت قنسرين. وأما المفسرون فروي عن ابن عباس أنها السماء الرابعة، وفي رواية أخرى أنها السماء السابعة، وقال قتادة ومقاتل: هي قائمة العرش اليمنى فوق السماء السابعة. وقال الضحاك: هي سدرة المنتهى. وقال الفراء: يعني ارتفاعًا بعد ارتفاع لا غاية له. وقال الزجاج: أعلى الأمكنة. وقال آخرون: هي مراتب عالية محفوظة بالجلالة قد عظَّمها الله وأعلى شأنها. وقال آخرون: عند كتاب أعمال الملائكة. وظاهر القرآن يشهد لهذا القول الأخير لأنه تعالى قال لرسوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تنبيهًا له على أنه معلوم له، وأنه سيعرفه ثم قال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ فبيَّن أن كتابهم في هذا الكتاب المرقوم الذي يشهده المقربون من الملائكة، فكأنه تعالى كما وكلهم باللوح المحفوظ فكذلك يوكلهم بحفظ كتب الأبرار في جملة ذلك الكتاب الذي هو أم الكتاب على وجه الإعظام له، ولا يمتنع أن الحفظة إذا صعدت بكتب الأبرار فإنهم يسلمونها إلى هؤلاء المقربين فيحفظونها كما يحفظون كتب أنفسهم، أو ينقلون ما في تلك الصحائف إلى ذلك الكتاب الذي وُكلوا بحفظه ويصير علمهم شهادة لهؤلاء الأبرار، فلذلك يحاسبون حسابًا يسيرًا؛ لأن هؤلاء المقربين يشهدون لهم بما حفظوه من أعمالهم، وإذا كان هذا الكتاب في السماء صح قول من تأول ذلك على أنه في السماء العالية، فتتقارب الأقوال في ذلك، وإذًا كان الذي ذكرناه أَوْلى.

واعلم أن المعتمد في تفسير هذه الآية ما بينا أن العلو والفسحة والضياء والطهارة من علامات السعادة، والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة، فلما كان المقصود من وضع كتاب الفجار في أسفل السافلين وفي أضيق المواضع إذلال الفجار وتحقير شأنهم، كان المقصود من وضع كتاب الأبرار في أعلى عليين وشهادة الملائكة لهم بذلك إجلالهم وتعظيم شأنهم، وفي الآية وجه آخر، وهو أن المراد من الكتاب الكتابة، فيكون المعنى أن كتابة أعمال الأبرار في عليين، ثم وصف عليين بأنه كتاب مرقوم فيه جميع أعمال الأبرار. وهو قول أبي مسلم.

أما قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ ففيه تأويلان: **أحدهما:** أن المراد بالكتاب المرقوم كتاب أعمالهم. **والثاني:** أنه كتاب موضوع في عليين، كُتب فيه ما أعد الله لهم من الكرامة والثواب. واختلفوا في ذلك الكتاب: فقال مقاتل: إن تلك الأشياء مكتوبة لهم في ساق العرش. وعن ابن عباس أنه مكتوب في لوح من زبرجد معلق تحت العرش. وقال آخرون: هو كتاب مرقوم بما يوجب سرورهم، وذلك بالضد من رقم كتاب الفجار بما يسوءهم، ويدل على هذا المعنى قوله:

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ يعني الملائكة الذي هم في عليين يشهدون ويحضرون ذلك المكتوب، ومن قال: (إنه كتاب الأعمال) قال: يشهد ذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين المقربون من الملائكة كرامة للمؤمن.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨ ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما عظَّم كتابهم في الآية المتقدمة، عظَّم بهذه الآية منزلتهم فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ ثم وصف كيفية ذلك النعيم بأمور ثلاثة: **أولها:** قوله: ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ قال القفال: الأرائك: الأسِرَّة في الحجال، ولا تسمى أريكة فيما زعموا إلا إذا كانت كذلك. وعن الحسن: كنا لا ندري ما الأريكة حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن أخبرنا أن الأريكة عندهم ذلك.

أما قوله: ﴿ يَنظُرُونَ﴾ ففيه ثلاثة أوجه: **أحدها:** ينظرون إلى أنواع نعمهم في الجنة من الحور العين والولدان، وأنواع الأطعمة والأشربة والملابس والمراكب وغيرها، قال عليه السلام: «يَلْحَظُ الْمُؤْمِنُ فَيُحِيطُ بِكُلِّ مَا آتَاهُ اللَّهُ، وَإِنَّ أَدْنَاهُمْ يَتَرَاءَى لَهُ مِثْلُ سَعَةِ الدُّنْيَا» (١) **والثاني:** قال مقاتل: ينظرون إلى عدوهم حين يعذبون في النار. **والثالث:** إذا اشتهوا شيئًا نظروا إليه فيحضرهم ذلك الشيء في الحال. واعلم أن هذه الأوجه الثلاثة من باب أنواع جنس واحد وهو المنظور إليه، فوجب حمل اللفظ على الكل، ويخطر ببالي تفسير رابع وهو أشرف من الكل وهو أنهم ينظرون إلى ربهم، ويتأكد هذا التأويل بما أنه قال بعد هذه الآية: ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ والنظر المقرون بالنضرة هو رؤية الله تعالى على ما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] ومما يؤكد هذا التأويل أنه يجب الابتداء بذكر أعظم اللذات، وما هو إلا رؤية الله تعالى. **وثانيها:** قوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾، **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: المعنى إذا رأيتهم عرفت أنهم أهل النعمة بسبب ما ترى في وجوههم من القرائن الدالة على ذلك. ثم في تلك القرائن قولان:

أحدهما: أنه ما يشاهد في وجوههم من الضحك والاستبشار، على ما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

والثاني: قال عطاء: إن الله تعالى يزيد في وجوههم من النور والحسن والبياض ما لا يصفه واصف، وتفسير النضرة قد سبق عند قوله: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢].

المسألة الثانية: قرئ: (تُعرف) على البناء للمفعول (ونضرة النعيم) بالرفع.

وثالثها: قوله: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾، **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في بيان أن الرحيق ما هو؟ قال الليث: (الرحيق) الخمر. وأنشد لحسان.

بَرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

(١) لم أجده.

وقال أبو عبيدة والزجاج: (الرحيق) من الخمر ما لا غش فيه ولا شيء يفسده، ولعله هو الخمر الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾[الصافات: ٤٧] .

المسألة الثانية: ذكر الله تعالى لهذا: (الرحيق) صفات:

الصفة الأولى: قوله: ﴿مَّخْتُومٍ﴾ وفيه وجوه: **الأول:** قال القفال: يحتمل أن هؤلاء يُسقون من شراب مختوم قد خُتم عليه تكريمًا له بالصيانة، على ما جرت به العادة من ختم ما يُكرم ويصان، وهناك خمر آخر تجري منها أنهار كما قال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[محمد: ١٥] إلا أن هذا المختوم أشرف في الجاري. **الثاني:** قال أبو عبيدة والمبرد والزجاج: المختوم الذي له ختام، أي عاقبة. **والثالث:** روي عن عبدالله في مختوم أنه ممزوج، قال الواحدي: وليس بتفسير لأن الختم لا يكون تفسيره المزج، ولكن لما كانت له عاقبة هي ريح المسك فسَّره بالممزوج؛ لأنه لو لم يمتزج بالمسك لما حصل فيه ريح المسك. **الرابع:** قال مجاهد: مختوم مطين. قال الواحدي: كان مراده من الختم بالطين هو أن لا تمسه يد إلى أن يفك ختمه الأبرار. والأقرب من جميع هذه الوجوه الوجه الأول الذي ذكره القفال. **الصفة الثانية لهذا الرحيق:** قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ وفيه وجوه الأول: قال القفال: معناه أن الذي يختم به رأس قارورة ذلك الرحيق هو المسك، كالطين الذي يختم به رؤوس القوارير، فكان ذلك المسك رطب ينطبع فيه الخاتم، وهذا الوجه مطابق للوجه الأول الذي حكيناه عن القفال في تفسير قوله: ﴿مَّخْتُومٍ﴾. **الثاني:** المراد من قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي عاقبته المسك، أي يختم له آخره بريح المسك، وهذا الوجه مطابق للوجه الذي حكيناه عن أبي عبيدة في تفسير قوله: ﴿مَّخْتُومٍ﴾ كأنه تعالى قال: من رحيق له عاقبة. ثم فسر تلك العاقبة فقال: تلك العاقبة مسك، أي مَن شربه كان ختم شربه على ريح المسك. وهذا قول علقمة والضحاك وسعيد بن جبير، ومقاتل وقتادة قالوا: إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك، والمعنى لذاذة المقطع وذكاء الرائحة وأرجها، مع طيب الطعم، والختام آخر كل شيء، ومنه يقال: ختمت القرآن، والأعمال بخواتيمها، ويؤكده قراءة علي عليه السلام، واختيار الكسائي فإنه يقرأ: (خَاتَمُهُ مِسْكٌ) أي آخره كما يقال: خاتم النبيين، قال الفراء: وهما متقاربان في المعنى إلا أن الخاتم اسم والختام مصدر، كقولهم: هو كريم الطباع والطابع. **الثالث:** معناه خلطه مسك، وذكروا أن فيه تطييبًا لطعمه. وقيل: بل لريحه، وأقول: لعل المراد أن الخمر الممزوج بهذه الأفاويه الحارة مما يعين على الهضم وتقوية الشهوة، فلعل المراد منه الإشارة إلى قوة شهوتهم وصحة أبدانهم، وهذا القول رواه سعيد بن جبير عن الأسود عن عائشة، تقول المرأة: لقد أخذت ختم طيني، أي لقد أخذت أخلاط طيني. قال أبو الدرداء: هو شراب أبيض مثل الفضة، يختمون به آخر شربهم، لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها لم يبق ذو رُوح إلا وجد طيب ريحه.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ قال الواحدي: يقال: نفست عليه

الشيء أنفسه نفاسة، إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه، والتنافس تفاعل منه، كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به، والمعنى: وفي ذلك فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله.

واعلم أن مبالغة الله تعالى في الترغيب فيه تدل على علو شأنه، وفيه إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم، لا في النعيم الذي هو مكدر سريع الفناء.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: تسنيم علم لعين بعينها في الجنة، سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سَنَّمه، إذا رفعه، إما لأنها أرفع شراب في الجنة، وإما لأنها تأتيهم من فوق، على ما روي أنها تجري في الهواء مسنمة فتنصب في أوانيهم، وإما لأنها لأجل كثرة ملئها وسرعته تعلو على كل شيء تمر به وهو تسنيمه، أو لأنه عند الجري يرى فيه ارتفاع وانخفاض، فهو التسنيم أيضًا، وذلك لأن أصل هذه الكلمة للعلو والارتفاع، ومنه سنام البعير، وتسنمت الحائط، إذا علوته، وأما قول المفسرين: فروى ميمون بن مهران أن ابن عباس سئل عن تسنيم، فقال: هذا مما يقول الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] ويقرب منه ما قال الحسن. وهو أنه أمر أخفاه الله تعالى لأهل الجنة. قال الواحدي: وعلى هذا لا يُعرف له اشتقاق وهو اسم معرفة، وعن عكرمة: ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ من تشريف.

المسألة الثانية: أنه تعالى ذكر أن تسنيم عين يشرب بها المقربون، قال ابن عباس: أشرف شراب أهل الجنة هو تسنيم؛ لأنه يشربه المقربون صرفًا، ويمزج لأصحاب اليمين.

واعلم أن الله تعالى لما قسَّم المكلفين في سورة الواقعة إلى ثلاثة أقسام: المقربون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، ثم إنه تعالى لما ذكر كرامة المذكورين في هذه السورة بأنه يمزج شرابهم من عين يشرب بها المقربون؛ علمنا أن المذكورين في هذا الموضع هم أصحاب اليمين، وأقول: هذا يدل على أن الأنهار متفاوتة في الفضيلة، فتسنيم أفضل أنهار الجنة، والمقربون أفضل أهل الجنة، والتسنيم في الجنة الروحانية هو معرفة الله ولذة النظر إلى وجه الله الكريم، والرحيق هو الابتهاج بمطالعة عالم الموجودات، فالمقربون لا يشربون إلا من التسنيم، أي لا يشتغلون إلا بمطالعة وجهه الكريم، وأصحاب اليمين يكون شرابهم ممزوجًا، فتارة يكون نظرهم إليه وتارة إلى مخلوقاته.

المسألة الثانية: (عينًا) نُصب على المدح، وقال الزجاج: نصب على الحال. وقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ كقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] وقد مر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾
عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما وصف كرامة الأبرار في الآخرة، ذكر بعد ذلك قبح معاملة الكفار معهم في الدنيا في استهزائهم وضحكهم، ثم بَيَّن أن ذلك سينقلب على الكفار في الآخرة، والمقصود منه تسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ذكروا في سبب النزول وجهين: **الأول:** أن المراد من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ أكابر المشركين كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل السهمي، كانوا يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين ويستهزئون بهم، **الثاني:** جاء علي عليه السلام في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع!! فضحكوا منه، فنزلت هذه الآية قبل أن يصل علي إلى رسول الله ﷺ.

المسألة الثانية: أنه تعالى حكى عنهم أربعة أشياء من المعاملات القبيحة: **فأولها:** قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي يستهزئون بهم وبدينهم. **وثانيها:** قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي يتفاعلون من الغمز، وهو الإشارة بالجفن والحاجب، ويكون الغمز أيضًا بمعنى العيب، وغمزه إذا عابه، وما في فلان غميزة، أي ما يعاب به، والمعنى أنهم يشيرون إليهم بالأعين استهزاء ويعيبونهم ويقولون: انظروا إلى هؤلاء يُتعبون أنفسهم ويحرمونها لذاتها ويخاطرون بأنفسهم في طلب ثواب لا يتيقنونه. **وثالثها:** قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ معجبين بما هم فيه من الشرك والمعصية والتنعم بالدنيا، أو يتفكهون بذكر المسلمين بالسوء. قرأ عاصم في رواية حفص عنه: ﴿فَكِهِينَ﴾ بغير ألف في هذا الموضع وحده، وفي سائر القرآن (فاكهين) بالألف وقرأ الباقون فاكهين بالألف، فقيل: هما لغتان، وقيل: فاكهين أي متنعمين مشغولين بما هم فيه من الكفر والتنعم بالدنيا، وفكهين: معجبين. **ورابعها:** قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي هم على ضلال في تركهم التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب لا يُدري هل له وجود أم لا، وهذا آخر ما حكاه تعالى عن الكفار.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ يعني أن الله تعالى لم يبعث هؤلاء الكفار رقباء على المؤمنين، يحفظون عليهم أحوالهم ويتفقدون ما يصنعونه من حق أو باطل، فيعيبون عليهم ما يعتقدونه ضلالاً، بل إنما أُمروا بإصلاح أنفسهم.

أما قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾، **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: المعنى أن في هذا اليوم الذي هو يوم تصقع الأعمال والمحاسبة يضحك المؤمن من الكافر، وفي سبب هذا الضحك وجوه: **أحدها:** أن الكفار كانوا يضحكون على

المؤمنين في الدنيا بسبب ما هم فيه من الضر والبؤس، وفي الآخرة يضحك المؤمنون على الكافرين بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء، ولأنهم علموا أنهم كانوا في الدنيا على غير شيء، وأنهم قد باعوا باقيًا بفانٍ ويرون أنفسهم قد فازوا بالنعيم المقيم ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد، ودخلوا الجنة فأجلسوا على الأرائك ينظرون إليهم كيف يعذبون في النار وكيف يصطرخون فيها ويدعون بالويل والثبور ويلعن بعضهم بعضًا. **الثاني:** قال أبو صالح: يقال لأهل النار وهم فيها: (اخرجوا) وتُفتح لهم أبوابها، فإذا رأوها قد فُتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها غُلقت دونهم، فذاك هو سبب الضحك.

المسألة الثانية: قوله: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ حال من يضحكون، أي يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر.

ثم قال تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ ثُوب بمعنى أثيب، أي الله المثيب، قال أوس [(١)]:

سَأَجْزِيكِ أَوْ يَجْزِيكِ عَنِّي مُثَوِّبٌ ... وَحَسْبُكِ أَنْ يُثْنَى عَلَيْكِ وَتُحْمَدِي

قال المبرد: وهو فُعِّل من الثواب، وهو ما يثوب، أي يرجع إلى فاعله جزاء ما عمله من خير أو شر، والثواب يستعمل في المكافأة بالشر، وأنشد أبو عبيدة [(٢)]:

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا حَسَنٍ رَسُولاً ... فَمَا لَكَ لاَ تَجِيءُ إِلَى الثَّوَابِ

والأَوْلى أن يُحمل ذلك على سبيل التهكم، كقوله: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] والمعنى كأنه تعالى يقول للمؤمنين: هل جازينا الكفار على عملهم الذي كان من جملته ضحكهم بكم واستهزاؤهم بطريقتكم، كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة؟ فيكون هذا القول زائدًا في سرورهم؛ لأنه يقتضي زيادة في تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم، والمقصود منها أحوال القيامة. والله أعلم.

(١) تقدمت ترجمة أوس بن حجر.
(٢) تقدت ترجمة أبي عبيدة.

سورة المطففين

مكيةٌ في قول ابنِ مسعود والضحاك[٣]. ومدنية في قولِ الحسنِ وعكرمةَ ومقاتل[٤]. قال مقاتل: وهي أولُ سورةٍ نزلتْ بالمدينة. وقال ابنُ عباس وقتادةُ: مدنيةٌ إلَّا ثمان آياتٍ من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ إلى آخِرها مكيٌّ. وقال الكلبيُّ وجابر بنُ زيد: نزلتْ بين مكَّةَ والمدينة. وهي ستٌّ وثلاثون آيةً[٥].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾

فيه أربع مسائل:

---

(٣) بعدها في النسخ: ومقاتل، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٢٢٥ ، والكلام منه.

(٤) قوله: ومقاتل، ليس في (د) و(م)، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٢٥ .

الأولى: روى النَّسائيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ كانوا من أَخْبثِ الناسِ كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، فأَحْسَنُوا الكيلَ بعد ذلك[١]. قال الفرَّاء[٢]: فهم من أَوْفَى الناسِ كيلاً إلى يومهم هذا.

وعن ابن عباس أيضاً قال: هي أوّلُ سورةٍ نزلت على رسول الله ﷺ ساعةَ نزل المدينةَ، وكان هذا فيهم؛ كانوا إذا اشتَرَوا استَوْفَوا بكيلٍ راجحٍ، فإذا باعوا بَخَسوا المكيالَ والميزانَ، فلمَّا نزلت هذه السورةُ انتهوا، فهم أَوْفَى الناسِ كيلاً إلى يومهم هذا[٣].

وقال قومٌ: نزلتْ في رجلٍ يُعْرَفُ بأبي جهينةَ ـ واسمُه عمرو ـ كان له صاعان يأخذُ بأحدهما، ويعطي بالآخَرِ[٤]؛ قاله أبو هريرةَ ﷺ[٥].

الثانية: قولُه تعالى: «ويْلٌ» أي: شدةُ عذابٍ في الآخرة. وقال ابن عباس: إنَّه وادٍ في جهنمَ يسيلُ فيه صَديدُ أهلِ النار[٦]، فهو قولُه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ أي: الذين يَنْقُصُون مَكاييلَهم ومَوازينَهم.

ورُوِي عن ابن عمر قال: المطفِّف: الرجلُ يَستأجِرُ الكيَّالَ وهو يَعْلَمُ أنه يَحِيفُ في كيله، فوِزْرُه عليه[٧].

---

(١) السنن الكبرى للنسائي (١١٥٩٠)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٢٢٢٣).

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٥ .

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وهو في معنى خبر ابن عباس الذي سلف. وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أول ما نزل بالمدينة «ويل للمطففين». الدر المنثور ٦/ ٣٢٣ .

(٤) أخرجه الثعلبي عن السدي، كما في الإصابة ١١/ ٦٩ ، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٤٨٣ .

(٥) ينظر ما سيأتي ص١٣٤-١٣٥ من هذا الجزء.

(٦) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٥١٥) عن ابن مسعود ﷺ، ولم نقف عليه عن ابن عباس، وقد سلف عنه أن الويل: المشقة والعذاب. ينظر ٢/ ٢٢١ .

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥١٧ . وفي إسناده إبراهيم بن يزيد، قال عنه الذهبي في التلخيص: واه.

وقال آخَرون: التطفيفُ في الكيلِ والوزنِ والوضوءِ والصلاةِ والحديث. وفي «الموطّأ»[١] قال مالك: ويقالُ: لكلِّ شيءٍ وفاءٌ وتَطْفيفٌ، وروي عن سالم بن أبي الجَعْد قال: [قال سلمان: الصلاةُ مِكْيالٌ]، فَمَن أوفَى أُوْفيَ له، ومَن طَفَّف فقد عَلِمْتُم ما قال الله عز وجل في ذلك: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[٢].

الثالثة: قال أهلُ اللغةِ: المطفِّفُ مأخوذٌ من الطَّفِيف، وهو القليلُ، والمطفِّفُ هو المقلِّلُ حقَّ صاحبِهِ بنقصانه عن الحقِّ في كيلٍ أو وَزْنٍ. وقال الزجَّاج: إنَّما قيل للفاعل من هذا مطفِّفٌ؛ لأنه لا يكاد يسرقُ من المكيال والميزان إلَّا الشيءَ الطفيفَ الخفيَّ[٣]، وإنَّما أُخِذَ من طَفِّ الشيءِ، وهو جانبه.

وطِفَافُ المكُّوكِ وطَفَافُه بالكسر والفتح: ما ملأ أصْبارَه، وكذلك طَفُّ المَكُّوكِ وطَفَفُه؛ وفي الحديث: «كلُّكم بنو آدمَ، طَفّ الصَّاعِ لم تَمْلَؤوه». وهو أن يَقْرُبَ أن يمتلئَ فلا يفعل[٤]؛ والمعنى: بعضُكم قريبٌ من بعضٍ، فليس لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ إلَّا بالتقوى[٥]. والطُّفَافُ والطُّفَافَةُ بالضم: ما فوقَ المِكيالِ، وإناءٌ طَفَّانُ: إذا بلغ الكيلُ[٦] طفافَه؛ تقول منه: أَطْفَفْتُ. والتطفيفُ: نَقْصُ المِكيالِ، وهو ألَّا تَملأَه إلى أصبارِه، أي: جوانبه؛ يقال: أَدْهَقْتُ الكأسَ إلى أصبارها، أي: إلى رأسها. وقولُ ابنِ عمرَ حين ذَكَر [أن] النبيَّ ﷺ سَبَّق [بينَ] الخيلِ: كنتُ فارساً يومئذٍ فسبقتُ الناسَ، حتى طَفَّف بي الفرسُ مسجدَ بني زُرَيقٍ، حتى كاد يساوي المسجد. يعني: وثب بي[٧].

---

(١) ١/ ١٢.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١١٩٢)، وعبد الرزاق (٣٧٥٠)، والدولابي في الكنى ٢/ ١٤١ ، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٣) في (م): الخفيف، وفي معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٧ : الحقير.

(٤) الصحاح (طفف)، والحديث أخرجه أحمد (١٧٣١٣) و(١٧٦٤٦) عن عقبة بن عامر ﷺ. قال السندي كما في حاشية المسند: أي: كلكم في الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة في النقص والتقاصر عن غاية التمام. وهو بالرفع خبرٌ بعد خبر، وقيل: بدلٌ أو خبرُ محذوفٍ، أو بالنصب حالٌ مؤكِّدة.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٥ ، وقوله: فليس لأحد...، قطعة من الحديث.

(٦) في (م) واللسان: الملء، والمثبت من النسخ الخطية والصحاح (طفف) والكلام منه.

(٧) الصحاح (طفف)، وما سلف بين حاصرتين منه.والحديث أخرجه أحمد (٤٤٨٧)، وبنحوه البخاري (٢٨٦٩)، ومسلم (١٨٧٠).

الرابعة: المطفِّفُ: هو الذي يُخسِرُ في الكَيْلِ والوزن، ولا يُوفي، حَسْبَ ما بيَّناه. وروى ابن القاسم عن مالك: أنه قرأ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فقال: لا تُطَفِّفْ ولا تَخْلُبْ[١]، ولكنْ أَرْسِلْ وصُبَّ عليه صَبًّا، حتى إذا استوى[٢] أَرْسِلْ يَدَكَ ولا تُمْسِك. وقال عبد الملك بن الماجشون: نهى رسول الله ﷺ عن مَسْحِ الطُّفاف، وقال: إنَّ البركةَ في رأسه. قال: وبلغني أنَّ كيلَ فرعونَ كان مسحاً بالحديدة[٣].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ قال الفرَّاء: أي: مِن الناس؛ يقال: اكْتَلْتُ منكَ، أي: استَوْفَيتُ منك، ويقال: اكتلتُ عليك[٤]، أي: أخذتُ ما عليك. وقال الزجَّاج: أي: إذا اكتالوا من الناس استَوْفَوْا عليهم الكيلَ[٥]. والمعنى: الذين إذا استَوْفَوا أخذوا الزيادة، وإذا أَوْفَوا أو وَزَنوا لغيرهم نَقَصُوا، فلا يَرْضَوْن للناس ما يرضون لأنفسهم. الطبريُّ: «على» بمعنى عند[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾: أي: كالوا لهم أو وَزَنوا لهم، فحذفت اللام، فتعدَّى الفعلُ فَنَصب، ومثلُه: نَصَحتُك ونصحتُ لك، وأَمَرْتُك به وأَمَرْتُكَه؛ قاله الأخفشُ والفرَّاء[٧]. قال الفرَّاء: وسمعتُ أعرابيةً تقولُ: إذا صَدَرَ

---

(١) أي: لا تخدع. القاموس (خلب).

(٢) في (م): استوفى، والمثبت من النسخ الخطية، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٩٦ ، والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: كان طفافاً مسحاً بالحديدة.

(٤) في النسخ: اكتلت ما عليك، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٦ ، والكشاف ٤/ ٢٣٠ ، وزاد المسير ٩/ ٥٢ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٧ .

(٦) كذا ذكر المصنف، والذي في تفسير الطبري ٢٤/ ١٨٦ : «الذين إذا اكتالوا على الناس»: الذين إذا اكتالوا من الناس، و«على» و«من» في هذا الموضع يتعاقبان.

(٧) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٣٤ ، وللفراء ٣/ ٢٤٥ - ٢٤٦ ، وما سيأتي منه أيضاً.

الناسُ أتينا التاجِرَ فيَكِيلُنا المُدَّ والمُدَّينِ إلى الموسم المقبل. قال: وهو مِن كلامِ أهل الحجازِ ومَن جاوَرَهم من قيس.

قال الزجاج[(١)]: لا يجوزُ الوقفُ على «كالُوا» و«وَزَنوا» حتى تَصِلَ به «هُمْ» قال: ومِن الناس مَن يجعلُها توكيداً، ويُجيز[(٢)] الوقفَ على «كالُوا» و«وزَنوا»، والأوّلُ الاختيارُ؛ لأنها حرفٌ واحدٌ. وهو قولُ الكسائيِّ[(٣)].

قال أبو عبيد: وكان عيسى بن عمر يجعلُها حرفين، ويقفُ على «كالوا» و«وزنوا»، ويبتدئُ: «هُمْ يُخسِرون»، قال: وأحسبُ قراءةَ حمزةَ كذلك أيضاً[(٤)].

قال أبو عبيد: والاختيارُ أن يكونا كلمةً واحدةً من جهتين:

إحداهما: الخطُّ؛ وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا: «كالوا» و«وزنوا»، بالألف.

والأخرى: أنه يقال: كِلْتُكَ ووزنتُك، بمعنى: كِلْتُ لك، ووزنتُ لك، وهو كلامٌ عربيٌّ، كما يقال: صِدْتُك وصِدْتُ لك، وكَسَبتُك وكَسَبْتُ لَك، وكذلك شكرتُكَ ونَصَحْتُكَ ونحو ذلك.

قوله: «يُخْسِرون»، أي: يَنْقُصون، والعربُ تقول: أَخْسَرتُ الميزانَ وخَسَرتُه.

و«هم» في موضع نصبٍ على قراءةِ العامَّة، راجعٌ إلى الناس، تقديرُه: وإذا كالوا الناسَ أو وزنوهم يُخْسِرون. وفيه وجهان: أحدهما: أن يراد كالوا لهم أو وَزَنُوا لهم، فحُذف الجارُّ، وأُوْصِلَ الفعلُ، كما قال:

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٩٨.

(٢) في (د) و(ظ): ويجوز، وفي معاني القرآن: فيجوز.

(٣) ذكره عنه أبو الليث ٣/ ٤٥٦.

(٤) ذكر قول أبي عبيد البغوي ٤/ ٤٥٨ دون قوله: وأحسب قراءة حمزة كذلك أيضاً، وذكرها عن حمزة ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٠، والمشهور عنه كقراءة الجماعة.

ولقد جَنَيْتُكَ أَكْمُؤاً وعَساقِلًا ولقد نهيتُكَ عن بناتِ الأَوْبَرِ[(١)]

أراد: جنيتُ لك.

والوجهُ الآخرُ: أن يكون على حذفِ المضافِ، وإقامةِ المضافِ إليه مُقامَه، والمضافُ هو المكيلُ والموزون[(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّكم معاشرَ الأَعاجِمِ وَلِيتُم أمرين بهما هَلَكَ مَن كان قبلكم: المِكيالَ والمِيزان. وخَصَّ الأعاجِمَ لأنَّهم كانوا يجمعون الكيلَ والوزنَ جميعاً، وكانا مُفَرَّقينِ في الحَرَمين؛ كان أهلُ مكةَ يَزِنون، وأهلُ المدينةِ يَكيلون[(٣)].

وعلى القراءةِ الثانيةِ «هُمْ» في موضعِ رفعٍ بالابتداء، أي: وإذا كالوا للناس أو وَزَنوا لهم فهم يُخْسِرون. ولا يصحُّ؛ لأنه تكون الأُولى مُلْغاةً ليس لها خبر، وإنَّما كانت تستقيمُ لو كان بعدها: وإذا كالواهم يَنْقُصون، أو وَزَنوا هم يُخْسِرون.

الثانية: قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «خمسٌ بخمسٍ: ما نَقَضَ قومٌ العهدَ إلَّا سَلَّط الله عليهم عدوَّهم، ولا حَكَموا بغيرِ ما أَنْزَلَ اللهُ إلَّا فشا فيهم الفقرُ، وما ظَهَرَت الفاحشةُ فيهم إلا فشا فيهم الطاعون، وما طَفَّفوا الكيلَ إلَّا مُنِعوا النَّباتَ، وأُخِذوا بالسِّنين، ولا مَنعوا الزكاةَ إلا حَبَس الله عنهم المَطَر»[(٤)] خرَّجه أبو بكر البزارُ بمعناه، ومالك بنُ أنسٍ أيضاً من حديث ابن عمر[(٥)]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[(٦)].

---

(١) المقتضب ٤/٤٨ ، ومجالس ثعلب ص ٥٥٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٧٤ ، وسر صناعة الإعراب ١/ ٣٦٦ ، والخصائص ٣/٥٨ ، والإنصاف في مسائل الخلاف ١/ ٣١٩ ، والكشاف ٤/ ٢٣٠ ، والكلام منه. قال ثعلب: وعساقل وبنات أوبر: ضربان من الكمأة.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٣٠ .

(٣) المصدر السابق، وخبر ابن عباس أخرجه هناد في الزاهد (٦٨١).

(٤) الوسيط ٤/ ٤٤٠ - ٤٤١ ، وتفسير الرازي ٣١/ ٨٨ .

(٥) حديث ابن عمر في مسند البزار (١٦٧٦)، وأخرجه من طريق مالك ابن عبد البر في الاستذكار ١٤/ ٢١١، وهو في الموطأ ١/ ٤٦٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.

(٦) ص٥٨٠ .

وقال مالك بن دينار: دَخَلْتُ على جارٍ لي قد نزل به الموتُ، فجعل يقول: جَبَلَيْنِ من نار! جَبَلَيْنِ من نار! فقلتُ: ما تقولُ؟ أتَهْجُر؟ قال: يا أبا يحيى، كان لي مكيالان؛ أَكِيلُ بأحدهما، وأكتالُ بالآخر؛ فقمتُ فجعلتُ أضربُ أَحدَهما بالآخَر، حتى كَسَرتُهما، فقال: يا أبا يحيى، كلَّما ضربتُ أحدَهما بالآخَرِ ازدادَ عِظَماً، فمات من وَجَعِه(١).

وقال عكرمةُ: أشهدُ على كلِّ كيَّالٍ أو وزَّانٍ أنه في النار. قيل له: فإنَّ ابنك كيالٌ ـ أو وَزَّان ـ فقال: أشهدُ أنه في النار(٢).

قال الأصمعيُّ: وسمعتُ أعرابيةً تقولُ: لا تَلْتَمِس المروءةَ ممَّن مروءتُه في رؤوسِ المكاييل، ولا أَلْسِنةِ الموازين(٣). ورُوي ذلك عن عليٍّ ﷺ. وقال عبدُ خير: مرَّ عليٌّ ﷺ على رجلٍ وهو يَزِنُ الزعفرانَ وقد أَرْجَح، فأَكْفَأَ الميزانَ ثم قال: أَقِم الوزنَ بالقِسْطِ؛ ثم أَرْجِحْ بعد ذلك ما شئت. كأنه أَمَرَه بالتسويةِ أولاً؛ ليعتادها، ويَفْصِلَ الواجبَ من النفل(٤).

وقال نافع: كان ابنُ عمر يمرُّ بالبائع فيقول: اتَّقِ اللهَ وأَوْفِ الكيلَ والوزنَ بالقسط، فإنَّ المطفِّفين يومَ القيامة يُوْقَفون حتى إنَّ العَرَق ليُلْجِمُهم إلى أنصاف آذانهم(٥).

وقد رُوِي أنَّ أبا هريرةَ قَدِمَ المدينةَ وقد خرج النبيُّ ﷺ إلى خيبرَ واستَخْلَفَ على المدينة سِباع بنَ عُرْفُطة، فقال أبو هريرةَ: فوجدناه في صلاةِ الصُّبحِ، فقرأ في الركعةِ

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٤١ دون قولِه: حتى كسرتهما. وقولُه: أتهجر، أي: أتهذي، في القاموس (هجر): هَجَر في نومه ومرضه هُجْراً بالضم: هذى.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٣٠ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ١٨٦ مطولاً دون قوله: قيل له إن ابنك..

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٣٠ ، عن أبيٍّ ﷺ. وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٩ عن بعض العرب.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٣٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٥٨ .

الأولى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ وقرأ في الركعة الثانية: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾. قال أبو هريرة: فأقولُ في صلاتي: ويْلٌ لأبي فلان؛ كان له مكيالان، إذا اكتالَ اكتالَ بالوافي، وإذا كالَ كالَ بالناقِص(١).

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إنكارٌ وتَعْجيبٌ عظيمٌ من حالهم في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يُخْطِرون(٢) ببالهم، ولا يُخمِّنون تخميناً ﴿أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ فمسؤولون عمَّا يفعلون. والظنُّ هنا بمعنى اليقينِ، أي: ألا يُوقنُ أولئك، ولو أيْقنوا ما نَقَصوا في الكيل والوزن. وقيل: الظنُّ بمعنى التردُّدِ، أي: إن كانوا لا يستيقنون بالبعث، فهلَّا ظَنُّوه، حتى يتدبَّروا ويبحثوا عنه، ويأخذوا بالأَحْوَط ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ شأنُه وهو يومُ القيامة.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ **فيه أربعُ مسائلَ:**

الأولى: العاملُ في «يومَ» فعلٌ مُضْمَرٌ دلَّ عليه «مبعوثون»، والمعنى: يُبْعثون يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين. ويجوز أن يكونَ بدلاً من «يوم» في «لِيوم عظِيم»، وهو مبنيٌّ. وقيل: هو في موضع خفضٍ؛ لأنَّه أُضيفَ إلى غيرِ متمكِّن. وقيل: هو منصوبٌ على الظَّرف، أي: في يوم. ويقال: أَقِمْ إلى يومَ يَخْرجُ فلان، فتنصبُ يوم، فإنْ أضافوا إلى الاسم فحينئذٍ يخفضون ويقولون: أَقم إلى يومِ خُروجِ فلان(٣). وقيل: في الكلام

---

(١) أخرجه أحمد (٨٥٥٢). وسباع بن عُرفُطة الغفاري، ويقال له: الكناني، له ذكر في حديث أبي هريرة هذا، وقال أبو حاتم: استعمله النبي ﷺ في غزوة دُومة الجندل. الإصابة ٤/ ١١٩ .

(٢) بعدها في (م): التطفيف، والمثبت من النسخ الخطية والكشاف ٤/ ٢٣١ ، والكلام منه.

(٣) وهذا على مذهب الكوفيين، وهو بناء الظرف على الفتح إذا أضيف إلى الجملة الفعلية وإن كانت معربة، وأما البصريون فلا يجيزون البناء إلا إذا صدِّرت الجملة المضاف إليها بفعل ماض. الدر المصون ٤/ ٥٢٠ .

تقديمٌ وتأخيرٌ، والتقديرُ: إنَّهم مبعوثون يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين ليومٍ عظيم.

الثانية: وعن عبد الملك بن مروان: أنَّ أعرابيًّا قال له: قد سمعتَ ما قال الله تعالى في المطفِّفين ـ أراد بذلك أنَّ المطفِّفين قد تَوَجَّه عليهم هذا الوعيدُ العظيمُ الذي سمعتَ به ـ فما ظنُّك بنفسك وأنت تأخُذُ أموالَ المسلمين بلا كيلٍ ولا وزْن(١)؟

وفي هذا الإنكارِ والتعجيبِ وكلمةِ الظَّنِّ، ووَصْفِ اليومِ بالعظيم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصفِ ذاته بربِّ العالمين، بيانٌ بليغٌ لِعظَمِ الذَّنْبِ، وتَفاقُمِ الإثم في التَّطْفيف، وفيما كان في مثلِ حاله من الحَيْفِ وتركِ القيامِ بالقِسْطِ، والعَمَلِ على التسوية والعَدْل في كلِّ أَخْذٍ وإعطاءٍ، بل في كلِّ قولٍ وعمل(٢).

الثالثة: قرأ ابن عمر: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فبكى حتى سَقَط، وامتنع من قراءةِ ما بَعْدَه، ثم قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين، في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ، فمنهم مَن يَبْلُغ العرَقُ كعبيه، ومنهم مَن يَبْلُغُ ركبتيه، ومنهم مَن يبلغُ حِقْوَيْه، ومنهم مَن يبلغُ صدرَه، ومنهم مَن يبلغُ أذنيه، حتى إنَّ أحدهم ليغيبُ في رَشْحِه كما يغيبُ الضِّفدع»(٣).

وروى ناسٌ عن ابن عباس قال: يقومون مقدارَ ثلاثِ مئةِ سنة. قال: ويَهونُ على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة(٤).

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٣١ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) لم نقف عليه بهذا السياق، والموقوف منه أخرجه أحمد في الزهد ص٢٤٠ ، وهناد في الزهد (٣٣٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٠٥ . وأخرج المرفوع مختصراً أحمد (٥٩١٢). وللمرفوع شاهد من حديث المقداد ﷺ عند أحمد (٢٣٨١٣)، ومسلم (٢٨٦٤). وآخر من حديث عقبة بن عامر عند أحمد (١٧٤٣٩). وثالث من حديث أبي أمامة عند أحمد (٢٢١٨٦). وينظر ما سيأتي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) ذكر الجزء الثاني منه الرازي ٣١/ ٩١ ، وأخرجه بتمامه ابن مردويه عن حذيفة، وعبد بن حميد عن قتادة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٤ .

ورُوي عن عبد الله بن عمر عن النبيِّ ﷺ قال: «يقومون ألفَ عامٍ في الظُّلْمَة»(١).

وَرَوَى مالك عن نافعٍ، عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قال: «يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين، حتى إنَّ أحدهم ليقومُ في رَشْحِه إلى أنصافِ أُذنيه»(٢). وعنه أيضًا عن النبيِّ ﷺ: «يقوم مئةَ سنةٍ»(٣).

وقال أبو هريرةَ: قال النبيُّ ﷺ لبشيرٍ الغِفاريِّ: «كيف أنت صانعٌ في يومٍ يقومُ الناسُ فيه مقدارَ ثلاثِ مئة سنةٍ لربِّ العالمين، لا يأتيهم فيه خبرٌ، ولا يؤمَرُ فيه بأمرٍ» قال بشير: المستعانُ الله(٤).

قلت: قد ذكرناه مرفوعاً من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّه لَيُخفَّفُ عن المؤمن، حتى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةِ المكتوبة يصلِّيها في الدنيا» في ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾(٥).

وعن ابن عباس: يَهونُ على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة(٦).

وقيل: إنَّ ذلك المقامَ على المؤمن كزوال الشمس. والدليلُ على هذا من الكتاب قولُه الحقُّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ثم وَصَفَهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣] جَعَلَنا الله منهم بفضله وكرمه وجُوده ومَنِّه آمين.

وقيل: المرادُ بالناسِ جبريلُ عليه السلام يقومُ لربِّ العالمين؛ قاله ابن جُبير(٧).

---

(١) في (د) و(م): في الظلة. ولم نقف عليه، وأخرج نحوه مطولاً الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٧ وقال: فيه هشام بن بلال لم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٧ ، وأخرجه من طريق مالك البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٧ ، وأخرجه موقوفاً الطبري ٢٤/ ١٨٩ - ١٩٠ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٩٠ ، وفي إسناده عبد السلام بن عجلان، قال الذهبي في الميزان ٢/ ٦١٨ : قال أبو حاتم: يكتب حديثه، وتوقَّف غيره في الاحتجاج به.

(٥) ٢١/ ٢٢٥ ، وسلف أيضاً ١٥/ ٣٩٩ ، وأخرجه أحمد (١١٧١٧).

(٦) سلف قريباً.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٢٧ .

وفيه بُعدٌ؛ لِمَا ذَكَرْنا من الأخبار في ذلك، وهي صحيحةٌ ثابتةٌ، وحَسْبُك بما في «صحيح» مسلم والبخاريِّ والترمذيِّ من حديثِ ابنِ عمرَ عن النبيِّ ﷺ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: «يقومُ أحدُهم في رَشْحِه إلى نِصْفِ أُذُنَيْه»(١).

ثم قيل: هذا القيامُ يومَ يقومون من قبورهم. وقيل: في الآخرة بحقوقِ عبادهِ في الدنيا. وقال يزيد الرشك: يقومون بين يديه للقضاء(٢).

الرابعة: القيامُ لله ربِّ العالمين سبحانه حَقيرٌ بالإضافة إلى عَظَمتِه وحَقِّه، فأمَّا قيامُ الناسِ بعضِهم لبعضٍ فاختَلفَ فيه الناس؛ فمنهم مَن أجازه، ومنهم مَن مَنَعه. وقد رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ قام إلى جعفر بنِ أبي طالب واعْتَنَقَه، وقام طلحةُ لكعب بنِ مالكٍ يومَ تِيبَ عليه. وقال النبيُّ ﷺ للأنصار حين طلع عليه سعد بنُ مُعاذ: «قوموا إلى سيدكم». وقال أيضاً: «مَن سرَّه أن يَتَمثَّلَ له الناسُ قياماً فلْيتبوَّأْ مقعدَه من النار». وذلك يَرجِعُ إلى حالِ الرجلِ ونيَّته، فإن انتظرَ ذلك واعتقده لنفسه [حقًّا]، فهو ممنوعٌ، وإن كان على طريق البشاشةِ والوُصْلةِ فإنَّه جائز، وخاصةً عند الأسباب، كالقدوم من السَّفر ونحوِه(٣). وقد مضى في آخر سورة يوسف شيءٌ من هذا(٤).

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ قال قومٌ من أهل العلم بالعربية:

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٣٨)، وصحيح مسلم (٢٨٦٢)، وسنن الترمذي (٣٣٣٦)، وهو عند أحمد (٤٦١٣)، وسلف قريباً.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٢٦ - ٢٢٧ . ويزيد الرشك هو ابن أبي يزيد الضُّبَعيُّ مولاهم، أبو الأزهر البصري، قيل: كان غيوراً فسمي بالفارسية أرشك، فقيل: الرشك. وقيل: الرشك بالفارسية: الكبير اللحية، توفي سنة (١٣٠هـ). التهذيب ٤/ ٤٣٤ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) ١١/ ٤٥٧ ، وسلف ثمة حديث: «قوموا إلى سيدكم» وحديث: «من سره...». أما حديث قيام طلحة لكعب فسلف ١٠/ ٤١٨ ضمن حديث كعب بن مالك الطويل في التخلف عن غزوة تبوك.

«كَلَّا»: رَدْعٌ وتنبيهٌ، أي: ليس الأمرُ على ما هم عليه من تَطْفيفِ الكَيْلِ والميزان، أو تكذيبٍ بالآخرة، فلْيرتَدِعوا عن ذلك. فهي كلمةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ، ثم استأنفَ فقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾.

وقال الحسن: «كلَّا» بمعنى حَقًّا[1]. ورَوَى ناسٌ عن ابن عباس: «كَلَّا» قال: ألَا تصدِّقون[2]. فعلى هذا: الوقفُ «لِربِّ العالِمين».

وفي تفسير مقاتل: إنَّ أعمالَ الفجَّار. وروى ناسٌ عن ابن عباس قال: إنَّ أرواحَ الفجَّارِ وأعمالَهم «لَفي سِجِّينٍ».

وروى ابنُ نَجيح عن مجاهد قال: سجِّين صخرةٌ تحت الأرضِ السابعة، تُقْلَبُ فيُجْعَلُ كتابُ الفجَّار تحتها[3]. ونحوه عن ابن عباسٍ وقتادةَ وسعيد بن جُبير ومقاتلٍ وكعبٍ؛ قال كعب: تحتها أرواحُ الكفَّارِ تحت خدِّ إبليس[4].

وعن كعب أيضاً قال: سجِّين صخرةٌ سوداءُ تحت الأرضِ السابعة، مكتوبٌ فيها اسمُ كلِّ شيطانٍ، تُلْقَى أَنْفُسُ الكفَّارِ عندها.

وقال سعيد بن جبير: سجِّين تحت خدِّ إبليس[5]. يحيى بنُ سلام: حجرٌ أسودُ تحت الأرض، يُكْتَبُ فيه أرواحُ الكفار[6]. وقال عطاءٌ الخُراسانيُّ: هي الأرضُ السابعةُ السُّفْلَى، وفيها إبليسُ وذرِّيته[7].

وعن ابن عباس قال: إنَّ الكافر يَحْضُره الموت، وتَحْضُره رسلُ الله، فلا

---

(١) الوسيط ٤/٤٤٣، وتفسير البغوي ٤/٤٥٨ ولفظه: «كلا» ابتداء يتصل بما بعده على معنى: حقًّا.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٤٥١ عن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/١٩٧ .

(٤) تفسير الطبري ٢٤/١٩٣ - ١٩٤ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/١٩٦ .

(٦) النكت والعيون ٦/٢٢٨ .

(٧) تفسير البغوي ٤/٤٥٩ .

يستطيعون لبُغْضِ اللهِ وبُغْضِهم إياه أنْ يؤخِّروه ولا يعجلوه حتى تجيءَ ساعتُه، فإذا جاءت ساعتُه قَبَضوا نَفْسَه، ورفعوه إلى ملائكة العذاب، فأَرَوْه ما شاء الله أَنْ يُرُوه من الشرِّ، ثم هَبَطوا به إلى الأرض السابعة، وهي سِجِّين، وهي آخِرُ سلطانِ إبليسَ، فأَثْبَتوا فيها كتابه[١].

وعن كعبِ الأحبارِ في هذه الآية قال: إنَّ رُوحَ الفاجِرِ إذا قُبضَتْ يُصْعَدُ بها إلى السماء، فتأبَى السماء أن تقبلها، ثم يُهْبَطُ بها إلى الأرض، فتأبى الأرضُ أن تَقْبلَها، فتدخلُ في سبعِ أَرَضِينَ، حتى يُنْتَهى بها إلى سِجِّين، وهو خدُّ إبليسَ، فيُخرجُ لها من سجينٍ من تحت خدِّ إبليس رَقٌّ، فيُرْقَم فيوضعُ تحت خدِّ إبليس[٢]. وقال الحسن: سجين في الأرض السابعة.

وقيل: هو ضربُ مثلٍ وإشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى يَردُّ أعمالَهم التي ظنُّوا أنَّها تنفعُهم.

قال مجاهد: المعنى: عملُهم في الأرضِ السابعةِ لا يصعدُ منها شيء[٣]. وقال: سجين صخرةٌ في الأرض السابعة[٤].

وروى أبو هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «سجين جُبٌّ في جهنمَ وهو مفتوحٌ» وقال في الفَلَق: «إنه جُبٌّ مُغَطّى»[٥].

وقال أنس: هي دَرَكَةٌ في الأرض السُّفلى. وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «سجِّين أسفلَ سبع أرضين»[٦].

---

(١) قطعة من خبر طويل أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٧، وهو فيه من كلام كعب الأحبار في جوابه على سؤال ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٩٤.

(٣) الصدر السابق.

(٤) سلف قريباً.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٩٦. وذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أن هذا الحديث غريب منكر لا يصح.

(٦) ذكره الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٣٥٢٠)، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٢٧، والبغوي ٤/ ٤٥٩ من حديث البراء بن عازب ﷺ، ولم نقف عليه عن أنس ﷺ.

وقال عِكرمة: سِجِّين: خَسارٌ وضلال[١]، كقولهم لمن سَقَط قَدْرُه: قد زَلَق بالحضيض.

وقال أبو عبيدةَ والأخفشُ والزجَّاج: «لفي سجِّين» لفي حَبْسٍ وضيقٍ شديدٍ، فِعيِّل من السّجن، كما يقالُ: فِسِّيق وشِرِّيب[٢]؛ قال ابنُ مُقْبِلٍ:

ورُفقةً يَضْرِبون البَيْضَ ضاحِيةً ضَرْبًا تَوَاصَتْ به الأبطالُ سِجِّينا[٣]

والمعنى: كتابُهم في حَبْسٍ، جُعل ذلك دليلاً على خساسةِ منزلتهم، أو لأنه يَحُلُّ من الإعراضِ عنه والإبعادِ له مَحَلَّ الزَّجْرِ والهَوَان.

وقيل: أصلُه سجِّيل، فأُبْدِلَتْ اللامُ نوناً. وقد تقدَّم ذلك[٤].

وقال زيد بنُ أَسْلَمَ: سِجين الأرضُ السَّافِلة، وسِجِّيل السماء الدنيا[٥].

القُشيريُّ: سجِّين: موضعٌ في السَّافِلِينَ، يُدْفَنُ فيه كتابُ هؤلاء، فلا يَظْهَرُ بل يكون في ذلك الموضع كالمسجون. وهذا دليلٌ على خُبْثِ أعمالهم، وتحقيرِ اللهِ إياها، ولهذا قال في كتاب الأبرار: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أي: ليس ذلك ممَّا كنتَ تَعْلَمه يا محمدُ أنت ولا قومُك. ثم فسَّره له فقال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي: مكتوبٌ كالرَّقْم في الثوب، لا يُنْسَى ولا يُمْحَى. وقال قتادة: «مرقومٌ» أي: مكتوبٌ، رُقمَ له بَشَرٌ[٦]، لا يُزادُ فيهم أحدٌ ولا ينقصُ منهم أحد.

---

(١) أخرجه ابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٥ دون قوله: وضلال.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٨٩، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٨، وقول الأخفش في النكت والعيون ٦/ ٢٢٨.

(٣) ديوان ابن مقبل ص٣٣٣، والمعاني الكبير ٢/ ٩٩١، وتهذيب اللغة ١١/ ٢٩، والصحاح (سجن)، ومنتهى الطلب ١/ ٣٦٦، وفيها جميعاً: ورَجْلةً يضربون البيض عن عُرُضٍ. البيض جمع بيضة، وهي الخوذة. المعجم الوسيط (بيض). وسلف البيت ١١/ ١٨٨.

(٤) ١١/ ١٨٦ - ١٨٨.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٢٧.

(٦) في النسخ: رقم لهم بشر، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٢٢٨، والكلام منه. وأخرجه الطبري ٢٤/ ١٩٨ دون قوله: لا يزاد فيهم...، وهو في تفسير البغوي ٤/ ٤٥٩، وزاد المسير ٩/ ٥٥ بلفظ: رقم له بشرٌ كأنه عُلِّم بعلامة يعرف بها أنه كافر. وفي تفسير الرازي ٣٢/ ٩٣: رقم لهم بسوء، أي: كتب لهم بإيجاب النار.

وقال الضحَّاك: مَرْقُومٌ: مختومٌ، بلغةِ حِمْيَر[١]. وأصلُ الرَّقْمِ: الكتابةُ؛ قال:

سأَرقُمُ في الماءِ القَرَاحِ إليكُمُ ... على بُعْدِكم إن كان للماءِ راقِمُ[٢]

وليس في قوله: «وما أدراك ما سِجِّين؟» ما يدلُّ على أنَّ لَفْظَ سجينٍ ليس عربيًّا، كما لا يدلُّ في قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ بل هو تعظيمٌ لأمرِ سجِّينٍ. وقد مضى في مقدِّمة الكتاب ـ والحمدُ لله ـ أنه ليس في القرآن غيرُ عربيٍّ[٣].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: شدةٌ وعذابٌ يومَ القيامةِ للمكذِّبين. ثم بيَّن تعالى أمْرَهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: بيوم الحسابِ والجزاء والفَصْل بين العباد ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: فاجرٍ جائرٍ عن الحقِّ، مُعْتَدٍ على الخَلْقِ في معاملته إياهم، وعلى نفسه، وهو أثيمٌ في تَرْكِ أمرِ الله. وقيل: هذا في الوليد بن المغيرة وأبي جهلٍ ونُظَرائِهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وقراءةُ العامَّةِ: «تُتْلَى» بتاءين، وقرأ أبو حَيْوَة وأبو سِمَاكٍ وأشهبُ العُقَيليُّ والسُّلَميُّ: «إذا يُتْلَى» بالياء[٤]. وأساطيرُ الأولين: أحاديثُهم وأباطيلُهم التي كتبوها وزَخْرفوها. واحدُها أُسْطورة وإِسطارة، وقد تقدَّم[٥].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: «كلَّا»: رَدْعٌ وزَجْر، أي: ليس هو أساطيرَ الأولينَ. وقال الحسن: معناها: حقًّا رانَ على قلوبهم.

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٥٩ دون نسبة، وذكره عن الضحاك الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٢٨ دون قوله: بلغة حمير.

(٢) البيت لأوس بن حجر، وهو في ديوانه ص ١١٦، واللسان (رقم)، وفيه: وقولهم: هو يَرقم في الماء، أي: بلغ من حذقه بالأمور أن يرقم حيث لا يثبت الرقم. اهـ. والقراح: الخالص. القاموس (قرح).

(٣) ١/ ١١٠.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٧٠.

(٥) ٨/ ٣٤٦.

وفي الترمذيِّ عن أبي هُريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا أَخْطَأَ خَطيئةً نُكِتَتْ في قلبه نُكْتةٌ سوداء، فإذا هو نَزَعَ واستَغْفَرَ الله وتاب صُقِلَ قلبُه، فإن عاد زِيدَ فيها، حتى تَعْلُوَ على قلبه، وهو الرَّانُ الذي ذَكَر اللهُ في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾». قال: هذا حديث حسن صحيح[(١)].

وكذا قال المفسِّرون: هو الذنبُ على الذنبِ حتى يَسْودَّ القلبُ. قال مجاهد: هو الرجل يُذْنبُ الذَّنْبَ، فيحيطُ الذنبُ بقلبه، ثم يُذْنبُ الذَّنْبَ فيحيطُ الذَّنْبُ بقلبه، حتى تُغشِّيَ الذنوبُ قلبه. قال مجاهد: هي مِثْلُ الآيةِ التي في سورةِ البقرة: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ الآيةَ [الآية: ٨١][(٢)]. ونحوه عن الفراء[(٣)]؛ قال: يقول: كَثُرتِ المعاصي منهم والذنوبُ، فأحاطَتْ بقلوبهم، فذلك الرَّيْنُ عليها.

ورُوي عن مجاهد أيضاً قال: القلبُ مثلُ الكفِّ ـ ورَفَع كفَّه ـ فإذا أَذْنبَ العبدُ الذَّنْبَ انْقَبضَ، وضمَّ إصْبِعَه، فإذا أَذْنبَ الذَّنْبَ[(٤)] انْقَبَضَ، وضمَّ أخرى ـ حتى ضمَّ أصابعَه كلَّها ـ حتى يُطْبَع على قلبه. قال: وكانوا يَرَوْنَ أنَّ ذلك هو الرَّين، ثم قرأ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[(٥)]. ومثلُه عن حذيفةَ ﷺ سواء[(٦)].

وقال بكر بن عبد الله: إنَّ العبد إذا أَذْنَبَ صار في قلبه كوخزةِ الإبرة، ثم إذا أَذْنَبَ ثانياً صار كذلك، ثم إذا كَثُرتِ الذنوبُ صار القلبُ كالمُنْخُلِ، أو كالغِرْبالِ، لا يعي خيراً، ولا يثبُتُ فيه صلاحٌ. وقد بيَّنا في «البقرة» القولَ في هذا المعنى بالأخبارِ الثابتةِ عن رسول الله ﷺ، فلا معنَى لإعادتها[(٧)].

وقد روى عبدُ الغنيِّ بنُ سعيد، عن موسى بنِ عبد الرحمن، عن ابن جُريجٍ، عن

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٤)، وهو عند أحمد (٧٩٥٢)، وسلف بنحوه ١/ ٢٨٧ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٠١ و٢٠٤ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٦ .

(٤) في (د): أخرى.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٦) أخرجه البيهقي في الشعب (٧٢٠٦).

(٧) ينظر ما سلف ١/ ٢٨٧ - ٢٨٨ .

عطاءٍ، عن ابن عباس. وعن موسى، عن مقاتلٍ، عن الضحَّاكِ، عن ابن عباس شيئاً اللهُ أَعْلَمُ بصحَّته؛ قال: هو الرّانُ الذي يكونُ على الفخذينِ والساقِ والقدم، وهو الذي يُلْبَسُ في الحرب. قال: وقال آخرون: الران: الخاطِرُ الذي يَخْطُر بقلب الرجل[1]. وهذا ممَّا لا يُضْمَنُ عُهْدةُ صِحَّتِهِ. فالله أعلم.

فأمَّا عامَّةُ أهلِ التفسيرِ فَعَلَى ما قد مضى ذِكْرُه قبلَ هذا. وكذلك أهلُ اللغة عليه؛ يقال: رَانَ على قلبه ذَنْبُه يَرِين رَيْناً ورُيوناً، أي: غَلَبَ. قال أبو عُبيدةَ في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: غَلَبَ. وقال أبو عُبيدٍ: كلُّ ما غَلَبَك فقد رانَ بك، ورانَكَ، ورانَ عليك[2]؛ وقال الشاعر:

وكَمْ رانَ مِن ذنبٍ على قَلْبِ فاجِرٍ فتابَ مِن الذَّنْبِ الذي رَانَ وانْجَلَى[3]

ورانت الخمرُ على عقله، أي: غلبته، وران عليه النُّعاسُ: إذا غطَّاه، ومنه قولُ عمرَ في الأُسَيفع ـ أُسَيْفع جُهَيْنَةَ ـ: فأصبح قد رِيْنَ به[4]. أي: غَلَبَتْه الديون، وكان يَدَّانُ. ومنه قولُ أبي زُبَيدٍ يَصِفُ رجلاً شرب حتى غَلَبه الشرابُ سُكْراً، فقال:

ثم لـمَّا رآه رانَتْ بـه الـخـمـرُ وأَنْ لا تَـرِيـنـه بـاتِّـقـاءِ[5]

فقوله: رانَتْ به الخمرُ، أي: غَلَبتْ على عَقْلِه وقلبه. وقال الأمويُّ: قد أَران

(١) لم نقف عليه، وموسى بن عبد الرحمن الثقفي الصنعاني، قال عنه ابن حبان: دجَّال، وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتاباً في التفسير. الميزان ٤/ ٢١١.

(٢) الصحاح (رين). وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٩. وقول أبي عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٧٠.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٢٩.

(٤) أخرجه مالك في الموطا ٢/ ٧٧٠، وسلف ٦/ ٥٣.

(٥) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٩، وغريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٧٠، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٩٩، والبيت في طبقات الفحول ٢/ ٦٠٤، والمعاني الكبير ١/ ٤٦٢، والأغاني ١٢/ ١٣٢ برواية: يريبه، بدل: ترينه.

قال الأستاذ محمود شاكر في حاشية طبقات الفحول: رابه يريبه: شك في أمره. ودعاه إلى الريبة فيه، أراد: لم يشك فيه ولم يتق شره.

القومُ فيهم مُرِينُون: إذا هَلَكَتْ مواشيهم أو هُزِلَتْ. وهذا من الأمر الذي أتاهم مما يغلبهم ولا يستطيعون احتمالَه. قال أبو زيد: يقال: قد رِينَ بالرجل رَيْناً: إذا وقع فيما لا يستطيعُ الخروجَ منه، ولا قِبَلَ له به[١].

وقال أبو مُعاذٍ النَّحْويُّ: الرَّينُ: أن يسودَّ القلبُ من الذنوب، والطَّبعُ: أن يُطْبَع على القلب، وهذا أشدُّ من الرَّين، والإقفالُ أشدُّ من الطَّبع[٢].

الزَّجَّاج: الرَّيْن: هو كالصَّدأ يُغَشِّي القلبَ كالغيم الرقيق، ومثلُه الغين، يقال: غِينَ على قلبه: غُطِّي[٣]. والغِيْنُ: شجرٌ ملتفٌّ، الواحدةُ غَيْناءُ، أي: خَضْراءُ كثيرةُ الورقِ مُلْتفَّةُ الأغصان[٤]. وقد تقدَّم قولُ الفراءِ: أنه إحاطةُ الذَّنبِ بالقلوب. وذَكَر الثعلبيُّ عن ابن عباس: «ران على قلوبهم»، أي: غطَّى عليها[٥]. وهذا هو الصحيحُ عنه إن شاء الله.

وقرأ حمزةُ والكسائيُ والأعمشُ وأبو بكر والمفضَّلُ: «ران» بالإمالة؛ لأنَّ فاءَ الفعلِ الراءُ، وعينه الألفُ منقلبة من ياء، فحَسُنَتِ الإمالةُ لذلك. ومَن فَتَحَ فعلَى الأصلِ؛ لأنَّ بابَ فاءِ الفعلِ في «فَعَلَ» الفتحُ، مثل: كالَ وباعَ ونحوه. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم. ووقف حفصٌ «بَلْ» ثم يبتدئُ «رَانَ»[٦] وَقْفاً يُبيِّن اللامَ، لا للسَّكْت.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ﴾ أي: حقًّا، «إنَّهم» يعني الكفارَ ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ القيامة: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾. وقيل: «كلَّا» ردعٌ وزَجْر، أي: ليس كما يقولون، بل «إنَّهم عن ربِّهم يومَئذٍ لمحجوبون».

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٧١، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٢٥.

(٣) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٩.

(٤) الصحاح (غين).

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٠٣ بلفظ: طبع على قلوبهم ما كسبوا.

(٦) التيسير ص ١٤٢ و٢٢٠.

قال الزجّاج[١]: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُرَى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآيةِ فائدةٌ، ولا خَسَّتْ منزلةُ الكفارِ بأنَّهم يُحْجَبون. وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] فأَعْلَمَ الله جلَّ ثناؤه أنَّ المؤمنين ينظرون إليه، وأَعْلَمَ أنَّ الكفار محجوبون عنه.

وقال مالك بن أنس في هذه الآيةِ: لمَّا حَجَبَ أعداءَه فلم يَرَوْه تجلَّى لأوليائه حتى رَأَوْه. وقال الشافعيُّ: لمَّا حجب قوماً بالسُّخْطِ، دلَّ على أنَّ قوماً يَروْنه بالرضا. ثم قال: أمَا واللهِ لو لم يُوْقِنْ محمد بنُ إدريس أنَّه يَرى ربَّه في المَعَادِ لَمَا عَبَدَه في الدنيا. وقال الحسين بن الفضل: كما[٢] حجبهم في الدنيا عن نور تَوْحيدِه حجبهم في الآخرة عن رؤيته[٣].

وقال مجاهدٌ في قوله تعالى: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾، أي: عن كرامته ورحمته ممنوعون[٤].وقال قتادةُ: هو أنَّ الله لا ينظرُ إليهم برحمته، ولا يزكِّيهم، ولهم عذابٌ أليم[٥].

وعلى الأول الجمهورُ، وأنَّهم محجوبون عن رؤيته فلا يَرَوْنه.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي: مُلازِمُوها ومُحْتَرِقون فيها غير خارِجين منها ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] و﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. ويقال: الجحيم: البابُ الرابعُ من النار .﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم، أي: تقولُ لهم خَزَنةُ جهنَّم ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ رسلَ اللهِ في الدنيا.

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٩٩ .

(٢) في (م): لما.

(٣) ذكره هذه الأقوال الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٤٦ .

(٤) ذكره البغوي ٤/ ٤٦٠ دون نسبة.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٠٤ - ٢٠٥ . وذكره البغوي ٤/ ٤٦٠ .

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ «كَلَّا» بمعنى: حقًّا، والوقفُ على «تكذِّبون». وقيل: أي: ليس الأمرُ كما يقولون ولا كما ظنُّوا، بل كتابُهم في سجِّين، وكتابُ المؤمنين في علِّيين. وقال مقاتل: كَلَّا، أي: لا يؤمنون بالعذاب الذي يَصْلَونه. ثم استأنف فقال: «إن كتاب الأبرارِ» مرفوعٌ في علِّيين على قَدْرِ مَرْتَبتهم. قال ابن عباس: أي: في الجنة. وعنه أيضاً قال: أعمالُهم في كتابٍ [عند] الله في السماء.

وقال الضحَّاك ومجاهدٌ وقتادةُ: يعني السماءَ السابعةَ فيها أرواحُ المؤمنين.

ورَوَى الأَجْلَحُ عن الضحَّاك قال: هي سِدْرةُ المنتهى، ينتهي إليها كلُّ شيءٍ من أَمْرِ اللهِ لا يَعْدُوها، فيقولون: ربِّ! عَبْدُكَ فلان، وهو أَعْلَمُ به منهم، فيأتيه كتابٌ من الله عزَّ وجلَّ مختومٌ بأمانه من العذاب. فذلك قولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾.

وعن كعب الأحبار قال: إنَّ روحَ المؤمنِ إذا قُبِضَتْ صُعِدَ بها وفُتِحَتْ لها أبوابُ السماءِ، وتلقَّتها الملائكةُ بالبُشْرَى، ثم يَخْرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرجُ لهم من تحت العرشِ رَقٌّ، فيُرْقَم ويُختَم فيه النجاةُ من الحساب يومَ القيامة، ويَشْهدُه المقرَّبون.

وقال قتادةُ أيضاً: «في علِّيين» هي فوقَ السماءِ السابعةِ عند قائمةِ العرشِ اليمنى[١]. وقال البَرَاء بن عازِبٍ: قال النبيُّ ﷺ: «عِلِّيون في السماء السابعةِ تحت العرش»[٢].

وعن ابن عباسٍ أيضاً: هو لوحٌ من زَبَرْجَدَةٍ خضراءَ معلَّقٌ بالعرش، أعمالُهم مكتوبةٌ فيه[٣].

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٤/٢٠٧ و٢١٠، وما بين سلف بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/٤٤٧، وينظر الحديث (١٨٥٣٤) في مسند أحمد عن البراء ﷺ.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٦٠.

وقال الفرَّاء: عِلِّيون: ارتفاعٌ بعد ارتفاع[(١)]. وقيل: علِّيون: أَعْلَى الأمكنةِ[(٢)]. وقيل: معناه: علوٌّ في علوٍّ مضاعَف كأنه لا غايةَ له؛ ولذلك جُمع بالواو والنُّون. وهو معنى قولِ الطبريِّ[(٣)]. قال الفرَّاء: هو اسمٌ موضوعٌ على صفةِ الجمع، ولا واحدَ له من لَفْظِه، كقولك: عشرون وثلاثون، والعربُ إذا جَمَعَتْ جمعاً ولم يكن له بناءٌ مِن واحدِهِ ولا تثنيةٌ، قالوا في المذكَّر والمؤنَّث بالنون[(٤)]. وهو معنى قولِ الطبريِّ[(٥)]. وقال الزجَّاج[(٦)]: إعرابُ هذا الاسم كإعرابِ الجمع [لأنه على لفظ الجمع]، كما تقول: هذه قِنَّسرون، ورأيتُ قِنَّسرين.

وقال يونس النحويُّ: واحدُها: علِّيٌّ وعِلِّيَةٌ. وقال أبو الفتح: عِلِّيين: جمعُ عِلِّيٍّ، وهو فِعِّيل من العُلُوِّ. وكان سبيلُه أن يقول: عِلِّية، كما قالوا للغرفة عِلِّية؛ لأنَّها من العلوِّ، فلمَّا حُذِفَتِ التاءُ من عِلِّية عوَّضوا منها الجمعَ بالواو والنون، كما قالوا في أَرضين[(٧)].

وقيل: إنَّ علِّيين صفةٌ للملائكة، فإنَّهم الملأُ الأعلى، كم يقال: فلانٌ في بني فلانٍ؛ أي: هو في جُمْلتهم وعندهم. والذي في الخبر من حديثِ ابنِ عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أهلَ عِلِّيين لَيَنْظُرون إلى الجنة من كذا[(٨)]، فإذا أَشْرَفَ رجلٌ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٧ .

(٢) هو قول الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٢٩٩ .

(٣) في تفسيره ٢٤/ ٢١٠ .

(٤) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٧ .

(٥) في تفسيره ٢٤/ ٢١٠ .

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٠٠ ، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٧) يعني أن كلمة أرض اسم مؤنث، فكأن فيها هاءً مُرادةً، وكأن تقديرها: أرْضة، فلما حذفت التاء التي كان القياس يوجبها، عوَّضوا منها الجمع بالواو والنون، فقالوا: أرضون. ينظر سر صناعة الإعراب لابن جني ٢/ ٦١٤ و٦٢٥ .

(٨) كذا في النسخ، والذي في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٢٢ : كوى، وكذا نقلها عنه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٢٧ .

من أهل عِلِّيين أشرقت الجنةُ لضياء وجهه، فيقولون: ما هذا النور؟! فيقال: أَشْرفَ رجل من أهل علِّيين الأبرارِ أهلِ الطَّاعةِ والصِّدْقِ». وفي خبرٍ آخَرَ: «إنَّ أهلَ الجنة لَيَرْون أهلَ عِلِّيين كما يُرى الكوكبُ الدُّرِّيُّ في أُفُقِ السماء»[١] يدلُّ على أنَّ عِلِّيين اسمُ الموضعِ المرتفعِ.

وروى ناسٌ عن ابن عباس في قوله: «عِلِّيين»، قال: أَخْبَرَ أنَّ أعمالهم وأرواحَهم في السماء الرابعة[٢].

ثم قال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ أي: ما الذي أَعْلَمَكَ يا محمدُ أيُّ شيءٍ علِّيون؟ على جهةِ التفخيم والتعظيم له في المنزلة الرفيعة. ثم فسَّره له فقال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

وقيل: إنَّ «كتابٌ مرقومٌ» ليس تفسيراً لعلِّيين، بل تمَّ الكلام عند قوله: «علِّيون»، ثم ابتدأ وقال: «كتاب مرقوم» أي: كتابُ الأبرارِ كتابٌ مَرْقومٌ، ولهذا عكس الرقْم في كتاب الفجَّار؛ قاله القشيريُّ.

وروي: أنَّ الملائكة تصعَدُ بعمل العبد، فيَسْتقِلُّونه[٣] فإذا انتَهَوْا به إلى ما شاء الله من سلطانه أَوْحَى إليهم: إنَّكم الحفَظَةُ على عبدي، وأنا الرقيبُ على ما في قلبه، وإنَّه أَخْلَصَ لي عملَه، فاجعلوه في علِّيين، فقد غَفَرْتُ له، وإنَّها لتصعدُ بعملِ العبد، فيزكُّونه، فإذا انتَهَوْا به إلى ما شاء الله أَوْحَى إليهم: أنتم الحفظةُ على عبدي وأنا الرقيبُ على ما في قلبه، وإنه لم يُخْلِصْ لي عملَه، فاجعلوه في سِجِّين[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (١١٥٨٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) في (ظ) و(ي): السابعة، وهما روايتان عن ابن عباس ذكرهما الرازي ٣١/ ٩٧.

(٣) في النسخ عدا (د): فيستقبلونه، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في المصادر، على ما يأتي.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٣٢، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٥٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٥٢٢) من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب، عن النبي ﷺ. وابن أبي مريم ضعيف، كما ذكر الحافظ في التقريب، كما أن الخبر مرسل.

قوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يَشْهدُ عملَ الأبرارِ مقرَّبو كلِّ سماءٍ من الملائكة. وقال وهبٌ وابنُ إسحاقَ: المقرَّبون هنا إسرافيلُ عليه السلامُ، فإذا عَمِلَ المؤمنُ عَملَ البِرِّ، صَعدت الملائكةُ بالصحيفة وله نورٌ يتلألأُ في السماوات كنورِ الشمس في الأرض، حتى يُنْتَهى بها إلى إسرافيل، فيختمُ عليها ويكتبُ، فهو قولُه: «يشهده المقربون» أي: يشهدُ كتابتهم[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ أي: أهلَ الصِّدْقِ والطاعة. ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ أي: نَعْمةٍ، والنَّعمةُ بالفتح: التنعيم؛ يقال: نَعَّمه الله وناعَمَه فتنعَّم، وامرأةٌ منعَّمةٌ ومنُاعَمةٌ بمعنى[٢]. أي: إنَّ الأبرار في الجنات يتنعَّمون. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي الأَسِرَّةُ في الحِجال[٣] ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعدَّ الله لهم من الكرامات؛ قاله عكرمةُ وابن عباسٍ ومجاهد[٤]. وقال مقاتل: ينظُرون إلى أهل النار. وعن النبيِّ ﷺ: «ينظُرون إلى أعدائهم في النار»[٥] ذكره المَهْدَوِيُّ. وقيل: على أرائكِ أَفْضالِه ينظرون إلى وجهه وجلاله.

قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: بهجَته وغَضَارتَه ونورَه؛ يقال: نَضَر النبات؛ إذا ازْهَرَّ ونَوَّر[٦]. وقراءةُ العامَّةِ: «تَعرِفُ» بفتح التاء وكَسْرِ الراء «نَضْرةَ»

---

(١) في (ظ): كتابهم.

(٢) الصحاح (نعم).

(٣) جمع حَجَلة، وهو موضع مثل القبة يتخذ للعروس، يزين بالثياب والسُّتور والأَسِرَّة. معجم متن اللغة (حجل).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٤٨، والبغوي ٤/ ٤٦١ دون نسبة.

(٥) ذكره مرفوعاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٣. وذكره الواحدي ٤/ ٤٤٨، والبغوي ٤/ ٤٦١ عن مقاتل قوله.

(٦) نوَّر: أخرج نَوْرَه، والنَّوْر: الزَّهر. القاموس (نور).

نصباً، أي: تَعْرِفُ يا محمد. وقرأ أبو جعفر بنُ القعقاع ويعقوبُ وشيبةُ وابن أبي إسحاق: «تُعْرَف» بضمِّ التاء وفتحِ الراء على الفعل المجهول، «نضرةُ» رفعاً[١].

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ أي: من شرابٍ لا غِشَّ فيه. قاله الأخفشُ والزجَّاج[٢]. وقيل: الرحيقُ: الخمرُ الصافية. وفي «الصحاح»[٣]: الرحيقُ صفوةُ الخمر. والمعنى واحدٌ. الخليل: أَصْفى[٤] الخمرِ وأجودُها. وقال مقاتل وغيره: هي الخمرُ العتيقةُ البيضاءُ الصافيةُ من الغشِّ النيِّرةُ، قال حسان:

يَسْقُونَ مَن وَرَدَ البَرِيصَ عليهِمُ بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ[٥]

وقال آخر:

أَمْ لا سبيلَ إلى الشبابِ وذِكْرُه أَشْهى إليَّ مِن الرحيقِ السَّلْسَلِ[٦]

﴿مَّخْتُومٍ . خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قال مجاهدٌ: يُختَمُ به آخِرُ جُرْعةٍ. وقيل: المعنى: إذا شربوا هذا الرحيقَ فَفَني ما في الكأس، انختم ذلك بخاتمِ المِسْكِ. وكان ابنُ مسعود يقول: يجدون عاقبتها طَعْمَ المِسْكِ[٧]. ونحوه عن سعيد بنِ جبير وإبراهيمَ النخعيِّ قالا: ختامُه: آخِرُ طَعْمِه[٨]. وهو حسنٌ؛ لأنَّ سبيل الأشربةِ أن يكون الكَدَرُ في آخرها، فوصف شراب أهلِ الجنة بأنَّ رائحةَ آخِرِه رائحةُ المِسْكِ.

---

(١) النشر ٢/ ٣٩٧ عن يعقوب وأبي جعفر.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٣٠٠ ، وذكره عن الأخفش الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٣٠ .

(٣) مادة (رحق).

(٤) في النسخ: أقصى، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٢٣٠ ، والكلام منه. وفي العين ٣/ ٤٥ : الرحيق من أسماء الخمر.

(٥) ديوان حسان ص ١٨٠ ، وسلف ٢١/ ٤٧٨ .

(٦) البيت لأبي كبير، وهو في ديوان الهذليين ص ٨٩ . قال شارح الديوان: السلسل: السهلُ في الحَلْقِ السَّلِسُ.

(٧) أخرجه هناد في الزهد (٦٤).

(٨) أخرجه بهذا اللفظ عن سعيد بن جبير ابن أبي شيبة ٣/ ١٤٣ . وأخرجه عن إبراهيم الطبري ٢٤/ ٢١٨ بلفظ: عاقبته مسك.

وعن مسروق عن عبد الله. قال: المختومُ: الممزوج[١].

وقيل: مختوم، أي: خُتِمتْ ومُنِعتْ عن أن يمسَّها ماسٌّ إلى أن يَفُكَّ ختامَها الأبرارُ.

وقرأ عليٌّ وعلقمةُ وشقيقٌ والضحاكُ وطاوسٌ والكسائيُّ: «خاتَمه» بفتح الخاء والتاء وألفٌ بينهما[٢]. قال علقمةُ: أمَا رأيتَ المرأةَ تقولُ للعطار: اجْعَلْ خاتَمه مِسْكاً، تريدُ آخِرَه. والخاتمَ والخِتام متقارِبان في المعنى، إلَّا أنَّ الخاتم الاسمُ، والخِتام المصدرُ؛ قاله الفراء[٣].

وفي «الصحاح»: والخِتامُ: الطِّينُ الذي يُخْتَم به[٤]. وكذا قال مجاهدٌ وابن زيد: خُتم إناؤه بالمسك بدلاً من الطِّين. حكاه المهدويُّ. وقال الفرزدق:

وبِتُّ أَفُضُّ أغلاقَ الخِتامِ[٥]

وقال الأعشى:

وأبْرزَها وعليها خَتَمْ[٦]

أي: عليها طينةٌ مختومةٌ، مثل نَفَضٍ بمعنى منفوضٍ، وقَبَض بمعنى مقبوضٍ[٧].

وذكر ابنُ المبارك وابنُ وَهْبٍ، واللفظُ لابنِ وَهْبٍ، عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: «خِتامه مِسْك»: خِلْطُه، ليس بخاتمٍ يَخْتِم، ألَا ترى إلى قولِ المرأةِ من

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٤٢ ، وهناد في الزهد (٦٦)، والطبري ٢٤/ ٢١٦ .

(٢) السبعة ص ٦٨٦ ، والتيسير ص ٢٢١ عن الكسائي. وذكرها عن علي وعلقمة الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٤٨ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٨ .

(٤) الصحاح (ختم).

(٥) وصدره: فبتن بجانبيَّ مُصرَّعات، وسلف ١٣/ ١٤٨ .

(٦) وصدره: وصهباءَ طاف يَهوديُّها. وهو في ديوان الأعشى ص ٨٥ ، والصحاح (ختم). قال الشارح: أي: يبرزها صاحبها اليهودي مختومة لم تُفَضَّ ولم تعبث بها يد. والصهباء: الخمر. القاموس (صهب).

(٧) الصحاح (ختم). والنَّفَض: ما تساقط من ورق الشجر والثمر. الصحاح (نفض).

نسائكم: إنَّ خِلْطَه من الطِّيب كذا وكذا. إنَّما خِلْطُه مسك[(١)].

قال [أبو الدرداء]: شرابٌ أبيضُ مثلُ الفضةِ يَخْتِمون به آخِرَ أَشْرِبَتهم، لو أنَّ رجلاً من أهل الدنيا أَدْخَل فيه يده ثم أَخْرَجَها، لم يَبْقَ ذو روحٍ إلَّا وَجَدَ ريحَ طِيْبِها[(٢)].

وروى أُبَيُّ بنُ كعب قال: قيل: يا رسول الله، ما الرحيقُ المختوم؟ قال: «غُدْرانُ الخمر»[(٣)]. وقيل: مختومٌ في الآنية، وهو غيرُ الذي يجري في الأنهار. فالله أعلم.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ أي: وفي الذي وصفناه من أمر الجنة ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي: فلْيَرْغَب الراغبون؛ يقال: نَفِسْتُ عليه الشيءَ أَنْفَسُه نفاسةً، أي: ضَنِنتُ به، ولم أُحِبَّ أنْ يصيرَ إليه[(٤)]. وقيل: الفاءُ بمعنى إلى، أي: وإلى ذلك فليتبادرِ المتبادِرون في العمل، نظيرُه: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أي: ومِزَاجُ ذلك الرحيقِ ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ وهو شرابٌ ينصبُّ عليهم من علوٍّ، وهو أشرفُ شرابٍ في الجنة. وأصلُ التسنيم في اللغة: الارتفاعُ، فهي عينُ ماءٍ تجري من علوٍّ إلى أسفل، ومنه: سنام البعير؛ لعلوِّه من بَدَنِه، وكذلك تسنيمُ القبور.

وروي عن عبد الله قال: «تسنيم» عينٌ في الجنة يشربُ بها المقرَّبون صِرْفاً، ويُمزجُ منها كأسُ أصحابِ اليمين فتطيب[(٥)].

وقال ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ قال: هذا ممَّا قال الله

(١) الزهد لابن المبارك (٢٧٧ - زوائد نعيم)، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/ ٢١٦ ، والطبراني في الكبير (٩٠٦٢).

(٢) الزهد لابن المبارك (٢٧٦ - زوائد نعيم)، وتفسير مجاهد ٢/ ٧٣٩ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢١٨ ، والبعث والنشور للبيهقي (٢٦٥)، وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٣٠ .

(٤) تفسير الرازي ٣١/ ١٠٠ .

(٥) أخرجه الحسين المروزي في زوائده على الزهد لابن المبارك (١٥٢٢)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٤٢ ، وهناد في الزهد (٦٥)، والطبري ٢٤/ ٢٢١ .

تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧][١].

وقيل: التسنيم: عينٌ تجري في الهواء بقدرةِ الله تعالى، فتنصبُّ في أواني أهلِ الجنةِ على قَدْرِ مائها، فإذا امتلأتْ أَمْسَكَ الماء، فلا تقع منه قطرةٌ على الأرض، ولا يحتاجون إلى الاستقاء؛ قاله قتادة[٢].

ابن زيد: بَلَغَنا أنَّها عينٌ تجري من تحت العرش[٣]. وكذا في مراسيلِ الحسن. وقد ذكرناه في سورة الإنسان[٤].

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يشربُ منها أهلُ جنةِ عَدْنٍ ـ وهم أفاضِلُ أهلِ الجنةِ ـ صِرْفًا، وهي لغيرهم مِزَاجٌ.

و«عيناً» نصب على المدح. وقال الزجَّاج: نصب على الحال من تسنيم، وتسنِيم معرفةٌ، ليس يُعرفُ له اشتقاق، وإن جَعَلْته مصدراً مشتقًّا من السَّنام فـ«عيناً» نصب لأنه مفعولٌ به، كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤-١٥] وهذا قولُ الفراءِ: أنه منصوبٌ بتسنيم. وعند الأخفش بـ«يُسْقَون» أي: يُسقونَ عيناً، أو: من عين. وعند المبرِّد بإضمارِ أعني على المدح[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ وَصَفَ أحوالَ الكفَّارِ في الدنيا مع المؤمنين في

---

(١) ذكره الرازي ٣١/ ١٠٠ ، والبغوي ٤/ ٤٦٢ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٤٩ .

(٢) ذكره البغوي ٤/ ٤٦١ .

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٢٢٤ .

(٤) عند تفسير الآية السادسة منها.

(٥) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٩ ، وللزجاج ٥/ ٣٠١ ، وللأخفش ٢/ ٧٣٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٨٢ .

استهزائهم[(١)] بهم، والمرادُ رؤساءُ قريشٍ من أهلِ الشِّرْك. رَوَى ناسٌ عن ابن عباسٍ قال: هو الوليدُ بنُ المغيرةِ، وعُقْبةُ بنُ أبي مُعَيْطٍ، والعاصُ بنُ وائلٍ، والأسودُ بنُ عبدِ يَغوث، والعاصُ بن هشام، وأبو جهل، والنَّضْرُ بنُ الحارثِ، وأولئك ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من أصحاب محمدٍ ﷺ، مثل عَمارٍ وخَبَّابٍ وصُهَيبٍ وبلال ﴿يَضْحَكُونَ﴾ على وجهِ السُّخْرية[(٢)]. ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾ عند إتيانهم رسولَ الله ﷺ ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يغمزُ بعضُهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم. وقيل: أي: يعيِّرونهم بالإسلام ويَعِيْبونَهم به. يقال: غَمزْتُ الشيءَ بيدي، قال:

وكنتُ إذا غمزتُ قناةَ قومٍ كَسَرْتُ كُعوبَها أو تستقيما[(٣)]

وقالت عائشةُ: كان النبيُّ ﷺ إذا سجد غَمزَني، فقبضتُ رِجْليَّ، الحديثَ، وقد مضى في «النساء»[(٤)]. وغمزتُه بعيني.

وقيل: الغمز: بمعنى العيب، يقال: غمزه، أي: عابَه، وما في فلانٍ غَمْزة[(٥)]، أي: عيب.

وقال مقاتل: نزلت في عليّ بنِ أبي طالب؛ جاء في نَفَرٍ من المسلمين إلى النبيِّ ﷺ فَلَمَزهم المنافقون، وضحكوا عليهم وتَغامَزوا[(٦)].

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ أي: انْصَرَفوا إلى أهلهم وأصحابهم وذَويهم ﴿انقلبوا فاكِهين﴾ أي: مُعَجَّبين منهم. وقيل: مُعْجَبون بما هم عليه من الكفر، متفكِّهون بِذِكْرِ المؤمنين. وقرأ ابنُ القعقاع وحَفْصٌ والأعرجُ والسُّلميُّ: «فَكِهين» بغيرِ ألفٍ. الباقون بألف[(٧)].

---

(١) في (د) و(م): باستهزائهم، وفي (ظ): واستهزاءهم.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٤٩، والبغوي ٤/ ٤٦٢، والرازي ٣١/ ١٠١ دون نسبة.

(٣) سلف ٥/ ١٧٣.

(٤) ٦/ ٣٧٥.

(٥) كذا في النسخ، وفي المعاجم: غميزة.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥٨، والكشاف ٤/ ٢٣٣، وتفسير الرازي ٣١/ ١٠١.

(٧) السبعة ص ٦٧٦، والتيسير ص ٢٢١، والنشر ٢/ ٢٥٤ - ٢٥٥ و٣٩٩.

قال الفرَّاء[١]: هما لغتان، مثل: طَمِع وطامِع، وحَذِر وحاذِر، وقد تقدَّم في سورة الدخان[٢]، والحمد لله. وقيل: الفَكِهُ: الأَشِرُ البَطِرُ، والفاكِه: الناعِم المتنعِّم.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي: إذا رأى هؤلاء الكفارُ أصحابَ محمدٍ ﷺ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ في اتِّباعهم محمداً ﷺ ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ لأعمالهم، مُوكَّلين بأحوالهم، رُقَباءَ عليهم. ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني هذا اليوم الذي هو يومُ القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمحمدٍ ﷺ ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ كما ضحك الكفارُ منهم في الدنيا. نظيرُه في آخِر سورةِ المؤمنين، وقد تقدَّم[٣].

وذكر ابن المبارك: أخبرنا محمد بن يسار عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ قال: ذُكِر لنا أنَّ كعباً كان يقول: إنَّ بين الجنةِ والنارِ كُوًى، فإذا أراد المؤمنُ أن ينظر إلى عدوٍّ كان له في الدنيا اطَّلَع من بعضِ الكُوَى؛ قال الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] قال: ذُكِر لنا أنه اطَّلع فرأى جماجمَ القومِ تَغْلِي[٤].

وذكر ابن المبارك أيضاً: أخبرنا الكلبيُّ عن أبي صالح في قوله تعالى: ﴿الله يستهزِئ بِهِم﴾ [البقرة: ١٥] قال: يقال لأهل النارِ وهم في النار: اخرجوا، فتفتَحُ لهم أبوابُ النارِ، فإذا رَأَوْها قد فُتِحَتْ أَقْبَلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انْتَهَوْا إلى أبوابها غُلِّقتْ دونهم، فذلك قولُه: ﴿الله يستهزئ بهِم﴾ ويَضْحكُ منهم المؤمنون حين غُلِّقتْ دونهم، فذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ . عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ . هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[٥] وقد

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٩ بنحوه.

(٢) ١٩/ ١١٧ - ١١٨.

(٣) ١٥/ ٩٥.

(٤) لم نقف عليه عند ابن المبارك، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٢٨.

(٥) لم نقف عليه عند ابن المبارك، وأخرجه ابن المنذر، كما في الدر المنثور ١/ ٣١.

مضى هذا في أولِ سورة البقرة[١].

ومعنى «هل ثُوِّب» أي: هل جُوزي [الكفار] بسُخْرِيتهم في الدنيا بالمؤمنين إذا فُعِل بهم ذلك[٢]. وقيل: إنه متعلّق بـ «ينظرون» أي: ينظرون: هل جُوزيَ الكفار؟ فيكون معنى هل وموضعُها نصباً بـ «ينظرون». وقيل: استئنافٌ لا موضعَ له من الإعراب. وقيل: هو إضمارٌ على القول، والمعنى: يقول بعضُ المؤمنين لبعضٍ: «هل ثُوِّب الكفار» أي: أُثيبَ وجُوزي. وهو مِن ثابَ يثوبُ، أي: رجع، فالثَّوابُ ما يرجع على العبد في مقَابَلَةِ عَمَلِه، ويُستعمل في الخير والشَّرّ. خُتِمَتِ السورةُ والله أعلم.

(١) ١/ ٣١٥.

(٢) بنحوه في مجمع البيان ٣٠/ ٧٤، وما سلف بين حاصرتين منه. قال الطبرسي: وهو استفهام يراد به التقرير، ويكون استئنافَ كلام لا موضع له من الإعراب.

تفسير سورة المطففين

وهى مدنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦ ﴾.

قال النسائى وابن ماجة : أخبرنا محمد بن عقيل ــ زاد ابن ماجة : وعبد الرحمن بن بشر ــ قالا : حدثنا على بن الحسين بن واقد ، حدثنى أبى ، عن يزيد ــ هو ابن أبى سعيد النحوى ، مولى قريش ــ عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما قدم نبى الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، فحسَّنوا الكيلَ بعد ذلك [١] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا جعفر بن النضر بن حماد ، حدثنا محمد بن عبيد ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرّة ، عن عبد الله بن الحارث ، عن هلال بن طلق قال : بينا أنا أسير مع ابن عمر فقلت : من أحسن الناس هيئةً وأوفاه كيلا ؟ أهل مكة أو المدينة ؟ قال : حق لهم ، أما سمعت الله يقول : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو السائب ، حدثنا ابن فضيل ، عن ضرار ، عن عبد الله المكتب ، عن رجل ، عن عبد الله قال : قال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، إن أهل المدينة ليوفون الكيل . قال : وما يمنعهم أن يوفوا الكيل وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٢] .

فالمراد بالتطفيف هاهنا : البَخْس فى المكيال والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قَضَاهم . ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخَسَار والهَلاَك وهو الويل ، بقوله: ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أى : من الناس ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أى : يأخذون حقهم بالوافى والزائد، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أى : ينقصون .والأحسن أن يجعل « كالوا » و«وزنوا» متعديا، ويكون هم فى محل نصب ، ومنهم من يجعلها ضميرا مؤكدا للمستتر فى قوله :«كالوا »و « وزنوا»، ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه ، وكلاهما متقارب .

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٤) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٢٣) .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/٥٨) .

وقد أمر الله ــ تعالى ــ بالوفاء فى الكيل والميزان ، فقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [الإسراء:٣٥] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام:١٥٢] ، وقال : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن:٩] . وأهلك الله قوم شعيب ودَمَّرهم على ما كانوا يبخسون الناس فى المكيال والميزان .

ثم قال تعالى متوعدا لهم : ﴿ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ؟ أى : أما يخافُ أولئك من البعث والقيام بين يَدَى من يعلم السرائر والضمائر ، فى يوم عظيم الهول ، كثير الفزع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل نارا حامية ؟

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : يقومون حفاة عراة غُرلاً ، فى موقف صعب حَرِج ضيق ضَنك على المجرم ، ويغشاهم من أمر الله ــ ما تَعْجزُ القوى والحواس عنه .

قال الإمام مالك : عن نافع ، عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » .

رواه البخارى ، من حديث مالك وعبد الله بن عون ، كلاهما عن نافع ، به [١] . ورواه مسلم من الطريقين أيضا . وكذلك رواه صالح [وثابت بن كيسان] [٢] وأيوب بن يحيى ، وعبد الله وعبيد الله ابنا عمر ، ومحمد بن إسحاق ، عن نافع ، عن ابن عمر ، به [٣] .

ولفظ الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا ابن إسحاق ، عن نافع ، عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ : لعظَمة الرحمن عز وجل يوم القيامة، حتى إن العرقَ ليُلجِمُ الرجالَ إلى أنصاف آذانهم» [٤] .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن إسحاق ،حدثنا ابن المبارك ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، حدثنى سليم بن عامر ، حدثنى المقداد ــ يعنى ابن الأسود الكندى ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يومُ القيامة أدنيَت الشمس من العباد ، حتى تكون قيدَ ميل أو ميلين ، قال : فتصهرهم الشمس ، فيكونون فى العَرَق كقَدْر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى عَقِبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ،ومنهم من يأخذه إلى حَقْوَيه ، ومنهم من يلجمه إلجاما » .

رواه مسلم ، عن الحكم بن موسى ، عن يحيى بن حمزة ــ والترمذى ، عن سويد ، عن ابن المبارك ــ كلاهما عن ابن جابر ، به [٥] .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن سَوَّار ، حدثنا الليث بن سعد ، عن معاوية

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٨٦٢،٦٥٣١) .

(٢) زيادة من أ .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٢) .

(٤) المسند (٢/ ٣١) .

(٥) المسند (٦/ ٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٤) وسنن الترمذى برقم (٢٤٢١) .

ابن صالح : أن أبا عبد الرحمن حدثه ،عن أبى أمامة : أن رسول الله ﷺ قال :« تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ، ويزاد فى حرها كذا وكذا ، تغلى منها الهوام كما تغلى القدور ، يُعرَقون فيها على قدر خطاياهم ، منهم من يبلغ إلى كعبيه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يلجمه العرق » . انفرد به أحمد (١) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا أبو عُشَّانة حَى بن يُؤمِنُ ، أنه سمع عقبة بن عامر يقول : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عَقِبيه ، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه ، ومنهم من يبلغ العَجُز ، ومنهم من يبلغ الخاصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه ، ومنهم من يبلغ وسط فيه ــ وأشار بيده فألجمها فاه ، رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا ــ ومنهم من يغطيه عرقه». وضرب بيده إشارة . انفرد به أحمد (٢) .

وفى حديث : أنهم يقومون سبعين سنة لا يتكلمون . وقيل : يقومون ثلاثمائة سنة . وقيل : يقومون أربعين ألف سنة . ويقضى بينهم فى مقدار عشرة (٣) آلاف سنة ، كما فى صحيح مسلم عن أبى هُرَيرة مرفوعا : «فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٤) .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ،حدثنا أبو عون الزيادى ، أخبرنا عبد السلام بن عَجْلان ، سمعت أبا يزيد المدنى ، عن أبى هريرة (٥) قال : قال النبى (٦) ﷺ لبشير(٧) الغفارى : « كيف أنت صانع فى يوم يقوم الناس فيه ثلاثمائة سنة لرب العالمين ، من أيام الدنيا ، لا يأتيهم فيه خبر من السماء ولا يؤمر فيه بأمر ؟ » . قال بشير :المستعان الله .قال : « فإذا أويت إلى فراشك فتعوذ بالله من كَرْب يوم القيامة ،وسوء الحساب » .

ورواه ابن جرير من طريق عبد السلام ، به (٨).

وفى سنن أبى داود : أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة (٩) .

وعن ابن مسعود : يقومون أربعين سنة رافعى رؤوسهم إلى السماء ، لا يكلمهم أحد ، قد ألجم العرق بَرّهم وفاجرهم .

وعن ابن عمر : يقومون مائة سنة . رواهما ابن جرير (١٠) .

وفى سنن أبى داود والنسائى وابن ماجة ، من حديث زيد بن الحباب ، عن معاوية بن صالح ،

---

(١) المسند (٥/ ٢٥٤) .

(٢) المسند (٤/ ١٥٧) .

(٣) فى أ:«عدة » .

(٤) صحيح مسلم برقم(٩٨٧) .

(٥) فى م :« عن أبى هريرة مرفوعا » .

(٦) فى م ، أ : « قال رسول الله » .

(٧) فى أ :« لبشر » .

(٨) تفسير الطبرى (٣٠/ ٥٩) .

(٩) سنن أبى داود برقم (٧٦٦) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(١٠) تفسير الطبرى (٣٠/ ٥٩) .

عن أزهر بن سعيد الحوارى ، عن عاصم بن حميد ، عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل : يكبر عشرا ، ويحمد عشرا ، ويسبح عشرا ، ويستغفر عشرا ، ويقول : « اللهم اغفر لى واهدنى ، وارزقنى وعافنى » . ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة (١) .

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٣) كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) ﴾ .

يقول : حقا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ أى : إن مصيرهم ومأواهم لفى سجين ــ فعيل من السَّجن ، وهو الضيق ــ كما يقال : فسّيق وشرّيب وخمّير وسكّير ، ونحو ذلك . ولهذا عظم أمره فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ؟ أى : هو أمر عظيم ، وسجن مقيم وعذاب أليم .

ثم قد قال قائلون : هى تحت الأرض السابعة . وقد تقدم فى حديث البراء بن عازب ، فى حديثه الطويل : يقول الله عز وجل فى روح الكافر : اكتبوا كتابه فى سجين .

وسجين : هى تحت الأرض السابعة . وقيل : صخرة تحت السابعة خضراء . وقيل : بئر فى جهنم .

وقد روى ابن جرير فى ذلك حديثا غريبا منكرا لا يصح فقال : حدثنا إسحاق بن وهب الواسطى، حدثنا مسعود بن موسى بن مُشكان الواسطى ، حدثنا نَصر بن خُزَيمة الواسطى ، عن شعيب بن صفوان ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « الفلق : جب فى جهنم (٢) مغطى ، وأما سجين فمفتوح » (٣) .

والصحيح أن « سجينا » مأخوذ من السَّجن ، وهو الضيق ، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق ،وكل ما تعالى منها اتسع ، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذى دونه ، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التى دونها ، حتى ينتهى السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز فى وسط الأرض السابعة . ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهى أسفل السافلين ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [التين: ٥، ٦] . وقال هاهنا : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، وهو يجمع الضيق والسفول ، كما قال :

---

(١) سنن أبى داود برقم (٧٦٦) وسنن النسائى (٣/٢٠٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٥٦) .

(٢) فى م :« فى وادى جهنم » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/٦١) .

﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣] .

وقوله : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ ليس تفسيرا لقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، وإنما هو تفسير (١) لما كتب لهم من المصير إلى سجين ، أى : مرقوم مكتوب مفروغ منه ، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد ؛ قاله محمد بن كعب القرظى .

ثم قال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى : إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السِّجن والعذاب المهين . وقد تقدم الكلام على قوله : ﴿ وَيْلٌ ﴾ بما أغنى عن إعادته ، وأن المراد من ذلك (٢) الهلاك والدمار ، كما يقال : ويل لفلان . وكما جاء فى المسند والسنن من رواية بَهْز بن حكيم بن معاوية بن حَيَدة ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « ويل للذى يُحَدِّث فيكذب ، ليضحكَ الناس ، ويل له ، ويل له »(٣) .

ثم قال تعالى مفسرا للمكذبين الفجار الكفرة : ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أى : لا يصدقون بوقوعه ، ولا يعتقدون كونه ، ويستبعدون أمره . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أى : معتد فى أفعاله ؛ من تعاطى الحرام والمجاوزة فى تناول المباح والأثيم (٤) فى أقواله : إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر .

وقوله : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى : إذا سمع كلام الله من الرسول ، يكذب به ، ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل: ٢٤] ، وقال : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥] ، قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، إن هذا القرآن أساطير الأولين ، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرَّيْن الذى قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾. والرين يعترى قلوبَ الكافرين ، والغيم للأبرار ، والغين للمقربين .

وقد روى ابن جرير والترمذى والنسائى وابن ماجة من طرق ، عن محمد بن عَجْلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب منها صُقِل قلبه ، وإن زاد زادت ، فذلك قول الله : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » (٥) .

وقال الترمذى : حسن صحيح . ولفظ النسائى : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكت فى قلبه نكتة ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقِل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه ، فهو الران الذى قال

---

(١) فى م : « تقرير » . (٢) فى أ : « ذلك أنه » .

(٣) المسند (٥/٥، ٧) وسنن أبى داود برقم (٤٩٩٠) وسنن الترمذى برقم (٢٣١٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٥) .

(٤) فى أ: « والإثم ».

(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ٦٢) وسنن الترمذى برقم (٣٣٣٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٨) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٤٤) .

الله : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » .

وقال أحمد : حدثنا صفوان بن عيسى ، أخبرنا ابن عَجْلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقِل قلبه ، فإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ، وذاك الران الذى ذكر الله فى القرآن : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » (١) .

وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب ، فيموت . وكذا قال مجاهد ابن جبر وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ أى : لهم يوم القيامة مَنزلٌ ونزل سجين ، ثم هم يوم القيامة مع (٢) ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم .

قال الإمام أبو عبد الله الشافعى : [فى] (٣) هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ (٤) .

وهذا الذى قاله الإمام الشافعى ، رحمه الله ، فى غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣] . وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح (٥) المتواترة فى رؤية المؤمنين ربهم عز وجل فى الدار الآخرة ، رؤية بالأبصار فى عَرَصات القيامة ، وفى روضات الجنات الفاخرة .

وقد قال ابن جرير [محمد بن عمار الرازى] (٦) : حدثنا أبو معمر المنْقَرىّ ، حدثنا عبد الوارث ابن سعيد ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن فى قوله: ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ ، قال : يكشف الحجاب ، فينظر إليه المؤمنون والكافرون ، ثم يحجب عنه الكافرون وينظر إليه المؤمنون . كُلّ يوم غدوة وعشية ــ أو كلاما هذا معناه .

قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴾ أى : ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ، ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ ، والتصغير والتحقير .

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

---

(١) المسند (٢/٢٩٧) .

(٢) فى م:« بعد » .

(٣) زيادة من م ، أ .

(٤) رواه البيهقى فى مناقب الشافعى (١/٤١٩) .

(٥) فى م : « الصحيحة » .

(٦) زيادة من م ، أ .

الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى : حقا ﴿ **إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ** ﴾ وهم بخلاف الفجار ، ﴿ **لَفِي عِلِّيِّينَ** ﴾ أى : مصيرهم إلى عليين ، وهو بخلاف سجين .

قال الأعمش ، عن شَمِر بن عطية ، عن هلال بن يَسَاف قال : سأل ابن عباس كعبا وأنا حاضر عن سجين ، قال : هى الأرض السابعة ، وفيها أرواح الكفار . وسأله عن علِّيين فقال : هى السماء السابعة ، وفيها أرواح المؤمنين . وهكذا قال غير واحد : إنها السماء السابعة .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ** ﴾ يعنى : الجنة .

وفى رواية العَوفى ، عنه : أعمالهم فى السماء عند الله . وكذا قال الضحاك .

وقال قتادة : عليون : ساق العرش اليمنى . وقال غيره : عليون عند سدرة المنتهى .

والظاهر : أن عليين مأخوذ من العلو ، وكلما علا الشىء وارتفع عظم واتسع ؛ ولهذا قال معظما أمره ومفخما شأنه : ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ** ﴾ . ثم قال مؤكدا لما كتب لهم : ﴿**كِتَابٌ مَّرْقُومٌ. يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ ، وهم الملائكة ، قاله قتادة .

وقال العَوْفى ، عن ابن عباس : يشهده من كل سماء مقربوها .

ثم قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ** ﴾ أى : يوم القيامة هم فى نعيم مقيم ، وجنات فيها فضل عميم ، ﴿ **عَلَى الْأَرَائِكِ** ﴾ وهى : السرر تحت الحِجَال ، ﴿ **يَنظُرُونَ** ﴾ قيل : معناه : ينظرون فى مُلكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذى لا ينقضى ولا يبيد . وقيل : معناه ﴿ **عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ** ﴾ إلى الله عز وجل . وهذا مقابلة [١] لما وُصف به أولئك الفجار : ﴿ **كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** ﴾ ، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله عز وجل وهم على سررهم وفرشهم ، كما تقدم فى حديث ابن عمر : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وإن أعلاه لمن ينظر إلى الله فى اليوم مرتين » [٢] .

وقوله : ﴿ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ** ﴾ أى : تعرف إذا نظرت إليهم فى وجوههم نضرة النعيم ، أى : صفة الترافة والحشمة والسرور والدِّعة والرياسة ؛ مما هم فيه من النعيم العظيم .

وقوله : ﴿ **يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ** ﴾ أى : يسقون من خمر من الجنة . والرحيق : من أسماء الخمر . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ،والحسن ، وقتادة ، وابن زيد .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، عن سعد [٣] أبى المجاهد الطائى ، عن عطية بن سعد العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى ـــ أراه قد رفعه إلى النبى ﷺ ـــ قال : « أيما مؤمن سقى

(١) فى أ : « مقابل » .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآيتين : ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(٣) فى أ : « عن سعيد » .

مؤمنا شربة [١] على ظمأ ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم . وأيما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع ، أطعمه الله من ثمار الجنة . وأيما مؤمن كسا مؤمنا ثوبا على عُرى ، كساه الله من خُضر الجنة» [٢].

وقال ابن مسعود فى قوله : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أى : خلطه مسك .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : طيب الله لهم الخمر ، فكان آخر شىء جعل فيها مسك ، خُتِم بمسك . وكذا قال قتادة والضحاك .

وقال إبراهيم والحسن : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أى : عاقبته مسك .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا أبو حمزة ، عن جابر ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن أبى الدرداء : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال : شراب أبيض مثل الفضة ، يختمون به شرابهم. ولو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها [٣].

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال : طيبه مسك .

وقوله : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ أى : وفى مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون ، وليتباهى ويكاثر [٤] ويستبق إلى مثله المستبقون. كقوله: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١].

وقوله : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ أى : ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم ، أى : من شراب يقال له تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه . قاله أبو صالح والضحاك ؛ ولهذا قال : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى : يشربها المقربون صِرْفاً، وتُمزَجُ لأصحاب اليمين مَزجاً . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وقتادة ، وغيرهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا فى الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين ، أى : يستهزئون بهم ويحتقرونهم [٥] ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ، أى : محتقرين لهم ، ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ أى : إذا انقلب ، أى : رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم ، انقلبوا إليها فاكهين ،

---

(١) فى م : « شربة ماء » .

(٢) المسند (٣/١٣) وعطية العوفى ضعيف .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/٦٨) .

(٤) فى م ، أ : « ويتكاثر » .

(٥) فى أ : « يحقرونهم ».

أى : مهما طلبوا وجدوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم ، ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ أى : لكونهم على غير دينهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أى : وما بُعث هؤلاء المجرمون (١) حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم ، ولا كلفوا بهم ؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠٨ــ١١١].

ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يعنى : يوم القيامة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ أى : فى مقابلة ما ضحك بهم أولئك ، ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ أى : إلى الله عز وجل ، فى مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ،ليسوا بضالين ، بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم فى دار كرامته .

وقوله : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُون ﴾ ؟ أى : هل جوزى الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقص أم لا ؟ يعنى : قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

آخر [تفسير سورة] (٢) « المطففين »

---

(١) فى أ : « المجرمين » وهو خطأ .

(٢) زيادة من أ .

سورة المطفّفين

مختلَف فيها،[1] وهي ستّ وثلاثون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ قيل: الويل: شدَّة الشرّ.[2] وقيل: العذاب الأليم.[3] وقيل: هو وادٍ في جهنّم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره.[4] وقيل وقيل.[5] وأيًا ما كان فهو مبتدأ وإن كان نكرةً، لوقوعه في موقع الدّعاء. والتطفيف: البخس في الكيل والوزن؛ لأنّ ما يُبخَس شيء طفيف حقير.

ورُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قدِم المدينة وكان أهلها مِن أخبَث الناس كَيلًا، فنزلت فأحسَنوا الكَيل.[6] وقيل: قدمها عليه السلام وبها رجل يعرف بأبي جهينةَ ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر.[7] وقيل:

---

[1] انظر تفصيل ذلك الاختلاف في اللباب لابن عادل، ٣٠٥/٢٠.

[2] منقول عن الخليل في المحرَّر الوجيز لابن عطيّة، ١٧٠/١ (البقرة، ٧٩/٢)؛ واللباب لابن عادل، ٢٠٧/٢ (البقرة، ٧٩/٢).

[3] مرويّ عن ابن عبّاس في اللباب لابن عادل، ٢٠٨/٢ (البقرة، ٧٩/٢).

[4] مرويّ عن أبي سعيد الخدري في جامع البيان للطبري، ١٦٤/٢ (البقرة، ٧٩/٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٥/١ (البقرة، ٧٩/٢).

[5] انظر هذه الأقوال في جامع البيان للطبري، ١٦٣/٢-١٦٤ (البقرة، ٧٩/٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٥/١ (البقرة، ٧٩/٢)؛ واللباب لابن عادل، ٢٠٧/٢-٢٠٨ (البقرة، ٧٩/٢).

[6] بلفظ قريب في سنن ابن ماجه، ٣٣٦/٢ (٢٢٢٣)؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٤٧٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٦١/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٩/٤.

[7] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٢٩؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٤٧٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٩/٤.

[٢٨٠و] كان أهل المدينة تِجارًا يطفِّفون وكانت / بياعاتهم المُنابَذة والمُلامَسة[١] والمُخاطَرة،[٢] فنزلت،[٣] فخَرَج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقرأها عليهم، وقال: «خَمس بخَمس: ما نقض قوم العهد إلّا سلّط الله عليهم عدوّهم، وما حكَموا بغير ما أنزل الله إلّا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت، ولا طفَّفوا الكيل إلّا مُنعوا النبات وأُخِذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلّا حُبِس عنهم القطر».[٤]

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾... إلى آخره، صفة كاشفة للمطفِّفين شارحة لكيفيّة تطفيفهم الذي استحقّوا به الذمّ والدعاء بالويل، أي: إذا اكتالوا مِن الناس مَكيلهم بحكم الشراء ونحوه يأخذونه وافيًا وافرًا، وتبديل كلمة ﴿عَلَى﴾ بـ"مِن" لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء،[٥] أو للإشارة إلى أنّه اكتيال مُضِرّ بهم، لكن لا على اعتبار الضرر في حيّز الشرط الذي يتضمّنه كلمة ﴿إِذَا﴾ لإخلاله بالمعنى؛ بل في نفس الأمر بموجَب الجواب؛[٦] فإنّ المراد بالاستيفاء ليس أخذَ الحقّ وافيًا مِن غير نقص؛ بل مجرّدُ الأخذ الوافي الوافر حسبما أرادوا، بأيّ وجه تيسَّر مِن وجوه الحِيَل، وكانوا يفعلونه بكَبْس المَكيل وتحريكِ المِكيال والاحتيال في مَلئه.

وأمّا ما قيل: مِن أنّ ذلك للدلالة على أنّ[٧] اكتيالهم لِما لهم على النّاس، فمع اقتضائه لعدم شمول الحُكم لاكتيالهم قبل أن يكون لهم على الناس شيء

---

١ بيع المُلامَسة أو اللِّماس: أن يقولَ لصاحبه: إذا لمستُ ثوبك أو لمستَ ثوبي فقد وجب البيعُ. وبيع المنابذة: أن تقول: إذا نبذتُه إليك، أو يقولَ المشتري إذا نبذته إليّ، فقد وجب البيعُ. المُغرب للمُطرِّزي، «لمس».

٢ وقال الطِّيبي في فتوح الغيب، ٣٣٤/١٦: «وقيل: المخاطرة: بيع الغَرَر، مثل بَيْعِ الطير في الهواء والسَّمكِ في الماء»، وأصل الكلام في الكشف عن مشكلات الكشّاف للقزويني، ٣١٨و. وفي معجم المصطلحات لنزيه حمّاد، ص ١١٤: أنّ بيع المخاطرة: هو أن يقول رجل لرجل: بعتُ منك هذا المتاعَ بكذا وكذا إن قدم فلان مِن سفره، ونحوه. وهو البيع المعلّق على شرط.

٣ أسباب النزول للواحدي، ص ٤٧٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٩/٤.

٤ بلفظ قريب في المعجم الكبير للطبراني، ٤٥/١١ (١٠٩٩٢)؛ والمستدرك للحاكم، ١٣٦/٢ (٢٥٧٧)؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٤٧٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٩/٤.

٥ وفي هامش م: فإنّ الاستيلاء على مَكيلهم بمنزلة الاستيلاء على أنفسهم. «منه».

٦ وفي هامش م: والأوّل هو الأظهر. «منه».

٧ س - أنّ.

بطريق الشراء ونحوه -مع أنّه الشائع فيما بينهم- يقتضي أن يكون معنى الاستيفاء أخذَ ما لهم عليهم وافيًا مِن غير نقص؛ إذ هو المتبادر منه عند الإطلاق في معرِض الحقّ، فلا يكون مدارًا لذمّهم والدعاءِ عليهم، وحَمْلَ ما لهم عليهم على معنى ما سيكون لهم عليهم[١] -مع كونه بعيدًا جدًّا- ممّا لا يُجدي نفعًا؛ فإنّ اعتبار كون المَكيل لهم حالًا كان أو مآلًا يستدعي كون الاستيفاء بالمعنى المذكور حتمًا.

وكذا حالُ ما نُقل عن الفرّاء مِن أنّ "مِن" و"على" تعتقبان في هذا الموضع؛ لأنّه حقّ عليه، فإذا قال: "اكتلتُ عليك"، فكأنّه قال: "أخذتُ ما عليك"، وإذا قال: "اكتلتُ منك"، فكقوله: "استوفيتُ منك".[٢] فتأمّلْ.

وقد جُوِّز أن تكون ﴿عَلَى﴾ متعلقةً بـ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾، ويكون تقديمها على الفعل لإفادة الخصوصيّة، أي: يستوفون على النّاس خاصّة، فأمّا أنفسهم فيستوفون لها.[٣]

وأنت خبير بأنّ القصر بتقديم الجارّ والمجرور إنّما يكون فيما يمكن تعلُّق الفعل بغير المجرور أيضًا حسب تعلُّقه به، فيُقصَد بالتقديم قَصْره عليه بطريق القلب أو الإفراد أو التعيين حسبما يقتضيه المقام. ولا ريبَ في أنّ الاستيفاء الذي هو عبارة عن الأخذ الوافي ممّا لا يُتصوَّر أن يكون على أنفسهم حتّى يُقصَد بتقديم الجارّ والمجرور قَصْرُه على الناس، على أنّ الحديث واقع في الفعل لا فيما وَقَع عليه. فتدبّرْ.

والضمير البارز في قوله تعالى: / ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ للناس، أي: إذ [٢٨٠ظ] كالوا لهم أو وزنوا لهم للبيع ونحوه ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصون، يقال: "خَسَر الميزانَ وأَخْسَره"، فحُذف الجارّ وأوصِل الفعل، كما في قوله:

ولقد جنيتُكَ أَكْمُؤًا وعَسَاقِلًا[٤]

---

١ ما وقفت على هذا الوجه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

٢ انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢٤٦/٣؛ ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٥٤٠/٤.

٣ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٠/٤.

٤ تمامه:

ولقد نهيتُكَ عن بناتِ الأوبرِ

وهو بلا عزو في سرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، ١٤٤/٢؛ والصحاح للجوهري، «عسقل»؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٤٨/٣ (البقرة، ٧١/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٠/٤. والأكمؤ والكمأة جمعُ الكمء، والعساقل: ضرب منه، وبنات الأوبر: الرديء منه. لسان العرب لابن منظور، «كمأ»، «وبر»، «عسقل».

أي: جنيتُ لك. وجعلُ البارز تأكيدًا للمستكِنّ ممّا لا يليق بجزالة التنزيل. ولعلّ ذِكرَ الكَيل والوزنِ في صورة الإخسار والاقتصارَ على الاكتيال في صورة الاستيفاء لِما أنّهم لم يكونوا متمكّنين مِن الاحتيال عند الاتّزان تمكُّنَهم منه عند الكيل والوزنِ. وعدمُ التعرّض للمَكيل والمَوزون في الصورتين؛ لأنّ مَساق الكلام لبيان سوء معاملتهم في الأخذ والإعطاء لا في خصوصيّة المأخوذ والمُعطى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ استئناف وارد لتهويل ما ارتكبوه مِن التطفيف والتعجيب مِن اجترائهم عليه. و﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿ٱلْمُطَفِّفِينَ﴾،[١] ووضعُه موضعَ ضميرهم للإشعار بمَناط الحُكم الذي هو وصفُهم، فإنّ الإشارة إلى الشيء متعرِّضة له مِن حيث اتّصافه بوَصْفه، وأمّا الضمير فلا يَتعرَّض لوصفه؛ وللإيذان بأنّهم ممتازون بذلك الوصف القبيح عن سائر الناس أكملَ امتياز، نازلون منزلةَ الأمور المشار إليها إشارةً حسّيّةً. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار ببُعد درجتهم في الشرارة والفساد، أي: ألا يظنّ أولئك الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل أنّهم مبعوثون.

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا يُقادَر قَدْر عِظَمه وعِظَمِ ما فيه، ومُحاسَبون فيه على مِقدار الذرّة والخَرْدلة، فإنّ مَن يظنّ ذلك وإن كان ظنًّا ضعيفًا مُتاخِمًا للشكّ فالوهم لا يكاد يتجاسَر على أمثال هاتيك القبائح، فكيف بمَن تيقّنه؟

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: لحُكمه وقضائه. منصوب بإضمار "أعني"، وقيل: بـ﴿مَبْعُوثُونَ﴾، أو مرفوع المحلّ خبرًا لمبتدأ مضمر أو [٢٨١و] مجرور بدلًا مِن ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مبنيّ على الفتح / لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعًا، كما هو رأي الكوفيّين.[٢] ويؤيّد الأخيرين القراءة بالرفع[٣] وبالجرّ.[٤]

[١] في الآية الأولى مِن هذه السورة.
[٢] انظر قولهم وتفصيله في شرح الرضيّ على الكافية ١/٢٤٩.
[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٦.
[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠.

وفي هذا الإنكار والتعجيب وإيرادِ الظنّ ووصفِ اليوم بالعِظَم وقيامِ الناس فيه كافّة لله تعالى خاضعين ووَصْفِه تعالى بربوبيّة العالمين مِن البيان البليغ[١] لعِظَم الذّنب وتفاقُمِ الإثم في التطفيف وأمثالِه ما لا يخفى.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع عمّا كانوا عليه مِن التطفيف والغفلة عن البعث والحساب. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾... إلخ تعليل للردع أو وجوب الارتداع بطريق التحقيق. و﴿سِجِّينٍ﴾ عَلَم لكتاب جامع هو ديوان الشرّ، دُوّن فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفَسَقة مِن الثقلين، منقولٌ مِن وصف كـ"حاتم". وأصلُه "فِعّيل" مِن "السَّجْن" وهو الحبس والتضييق؛ لأنّه سبب الحبس والتضييق في جهنّم، أو لأنّه مطروح -كما قيل- تحت الأرض السابعة في مكان مُظلِم وَحِش وهو مَسكَن إبليسَ وذرّيّته.[٢] فالمعنى أنّ كتاب الفجّار الذين مِن جملتهم المطفِّفون، أي: ما يُكتَب مِن أعمالهم أو كتابةُ أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدوَّن فيه قبائح أعمالِ المذكورين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ تهويل لأمره، أي: هو بحيث لا يبلغه دِراية أحد.

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾[٣] مسطور بيّن الكتابة أو مُعلَم يَعلَم مَن رآه أنّه لا خيرَ فيه. وقيل: هو اسم المكان، والتقدير: ما كتابُ السِّجّين، أو محلّ كتابٍ مرقوم.[٤]

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ متّصل بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وما بينهما اعتراض.

---

١ السياق: وفي هذا الإنكار... مِن البيان البليغ...
٢ أورده الزمخشري في الكشّاف، ٥٤١/٤.
٣ س ي + أي.
٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥١٠/٣-٥١١.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إمّا مجرور على أنّه صفة ذامّة للمكذِّبين، أو بدلٌ منه، أو مرفوعٌ، أو منصوبٌ على الذمّ.

[٢٨١ظ] ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾ أي: متجاوِز عن حدود النظر والاعتبار / غالٍ في التقليد حتّى استقصر قُدرة الله تعالى وعِلمه عن الإعادة مع مشاهدته للبدء. ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: منهمِك في الشهوات المخدَجة الفانية، بحيث شغلَته عمّا وراءها مِن اللذات التامّة الباقية وحملَته على إنكارها.

﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقة بذلك ﴿قَالَ﴾ مِن فرط جهله وإعراضه عن الحقّ الذي لا مَحيد عنه. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: هي حكايات الأوّلين. قال الكلبي: المراد بالمعتدي الأثيم: هو الوليد بن المغيرة. وقيل: النَّضْر بن الحارث. وقيل: عامّ لكلّ مَن اتّصف بالأوصاف المذكورة.[١] وقُرئ: "إِذَا يُتْلَى"[٢] بتذكير الفعل، وقُرئ: "أَإِذَا تُتْلَى"[٣] على الاستفهام الإنكاري.

﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للمُعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له فيه. وقوله تعالى: ﴿بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ بيان لِما أدّى بهم إلى التفوّه بتلك العظيمة، أي: ليس في آياتنا ما يُصحِّح أن يقال في شأنها مِثلُ هذه المقالات الباطلة؛ بل ركّب قلوبهم وغلَب عليها ما كانوا يكسبونها مِن الكفر والمعاصي، حتّى صارت كالصدأ في المرآة، فحالَ ذاك بينهم وبين معرفة الحقّ، كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ العبد كلّما أذنب ذنبًا حَصَل في قلبه نكتةٌ سوداءُ حتّى يسوَدّ قلبه»،[٤] ولذلك قالوا ما قالوا. والرَّيْن: الصدأ، يقال:

---

١ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٢١٤/٢٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة والحسن وابن مِقْسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٠٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠.

٤ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٣٣٣/١٣ (٧٩٥٢)؛ وسنن ابن ماجه، ٣١٦/٥-٣١٧ (٤٢٤٤)؛ وسنن الترمذي، ٤٣٤/٥ (٣٣٣٤)؛ وبلفظه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥١١/٣.

رانَ عليه الذَّنب وغانَ عليه رَينًا وغَينًا، ويقال: ران فيه النوم، أي: رَسَخ فيه.[١] وقُرئ بإدغام "اللام" في "الراء".[٢]

﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجرٌ عن الكسب الرائن ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ فلا يكادون يرَونه، بخلاف المؤمنين. وقيل: هو تمثيل لإهانتهم بإهانة مَن يُحجَب عن الدخول على الملوك.[٣] وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه[٤] وقتادةَ وابن أبي مُلَيكةَ:[٥] محجوبون عن رحمته. وعن ابن كَيْسان: عن كرامته.[٦]

﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: داخلو النار، و﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الرتبة فإنّ صِليّ الجحيم أشدّ مِن الإهانة والحرمان مِن الرحمة والكرامة.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم توبيخًا وتقريعًا مِن جهة الزبانيَة ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فذُوقوا / عذابه. [٢٨٢و]

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۝٣٣﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع عمّا كانوا عليه بعد ردع، وزجرٌ إثرَ زجر. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ استئناف مَسوق لبيان محلّ كتاب الأبرار بعد بيان

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٤١/٤.

٢ قرأ بها العشرة إلّا حفصًا بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٤٢٥/١.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤١/٤.

٤ س - رضي الله عنه.

٥ هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة التيمي المكي، أبو بكر (ت. ١١٧هـ/٧٣٥م). الإمام الحجّة الحافظ القاضي الأحول المؤذن. كان عالمًا مفتيًا صاحب حديث وإتقان، معدود في طبقة عطاء. حدّث عن عائشة وأختها أسماء وابن عبّاس وغيرهم. ولاه ابن الزبير قضاء الطائف. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٨٨/٥؛ والأعلام للزركلي، ١٠٢/٤.

٦ كلاهما في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٤. وانظر: جامع البيان للطبري، ٢٠٤/٢٤-٢٠٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٦٥/٨.

سوءِ حال الفجّار متّصلًا ببيان سوء حال كتابهم، وفيه تأكيد للردع ووجوب الارتداع. وكتابُهم: ما كُتب مِن أعمالهم، وعِلّيُّون: عَلَم لديوان الخير الذي دُوِّن فيه كلّ ما عمِلته الملائكة وصُلحاء الثقلين، منقولٌ مِن جَمْع "عِلِّيّ" على "فِعِّيل" مِن العُلوّ، سُمّي بذلك إمّا لأنّه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنّة وإمّا لأنّه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكَرُوبيُّون[١] تكريمًا له وتعظيمًا.

والكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ كما مرّ في نظيره.

وقوله تعالى: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ صفة أخرى لـ﴿كِتَٰبٞ﴾ أي: يحضرونه ويحفظونه أو يشهدون بما فيه يوم القيامة.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ شروع في بيان مَحاسِن أحوالهم إثرَ بيان حال كتابهم، على طريقة ما مرّ في شأن الفجّار.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ أي: على الأسِرّة في الحِجال،[٢] ولا يكاد يُطلق الأريكة على السرير عندهم إلّا عند كونه في الحَجَلة. ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: إلى ما شاءوا مدّ أعينهم إليه مِن رغائب مناظرِ الجنّة، وإلى ما أولاهم الله عزّ وجلّ مِن النِّعمة والكرامة، وإلى أعدائهم يُعذَّبون في النار وما تحجُب الحِجال أبصارَهم عن الإدراك.

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: بهجةَ التنعّم وماءه ورونقَه. والخطاب لكلّ أحد ممّن له حظٌّ مِن الخطاب، للإيذان بأنّ ما لهم مِن آثار النعمة وأحكام البهجة بحيث لا يختصّ برؤية راءٍ دون راءٍ.

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ﴾ شراب خالص لا غِشّ فيه ﴿مَّخۡتُومٍ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ أي: مختوم أوانيه وأكوابه بالمِسك مكانَ الطين، ولعلّه تمثيل لكمال نفاسته. وقيل:

---

١ الملائكة الكَرُوبيُّون: هم سادة الملائكة، وقيل حملة العرش. انظر: **جامع البيان** للطبري، ٤٠١/١٦ (الأنبياء، ٩٥/٢١)؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ١٣٩/٧ (غافر، ٧/٤٠)؛ و**لسان العرب** لابن منظور، «كرب».

٢ الحِجال جمع حَجَلة: وهو بيت مثل القُبّة يستر بالثياب، ويكون له أزرار كِبار، منه حَجَلة العروس: بيت يُزيَّن بالثياب والأسِرّة والستور. **لسان العرب** لابن منظور، «حجل».

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾ أي: مقطعُه رائحة مِسك. وقُرئ: "خَاتمُهُ" بفتح "التاء"[١] وكسرها،[٢] أي: ما يُختَم به ويُقطَع.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الرحيق، وهو الأنسب لِما بعده، أو إلى ما ذُكر مِن أحوالهم. وما فيه مِن معنى البعد إمّا للإشعار بعُلوّ رتبته وبُعد منزلته، أو لكونه في الجنّة، أي: في ذلك خاصّةً دون غيره. ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي: فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى. وقيل:[٣] فليَعمل العاملون، كقوله تعالى: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات، ٦١/٣٧].[٤] وقيل:[٥] فليَستبق المستبقون.[٦] وأصل التنافُس: التغالُب في الشيء النفيس، وأصله مِن النَّفْس لعزّتها. قال الواحدي: نفَست الشيء أنفسُه نفاسةً، والتنافس تفاعلٌ منه، كأنّ كلّ واحد مِن الشخصين يريد أن يستأثر به.[٧] وقال البَغوي: وأصله مِن الشيء النفيس الذي يحرص عليه نفوسُ الناس ويُريده كلّ أحد لنفسه، وينفس به على غيره، أي: يضنّ به.[٨]

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ عطفٌ على ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾، صفة أخرى لـ﴿رَحِيقٖ﴾ مثله، وما بينهما اعتراضٌ مقرّر لنفاسته، أي: ما يُمزَج به ذلك الرحيق مِن ماء تسنيم على أنّ ﴿مِن﴾ بيانيّة أو تبعيضيّة، أو مِن نفسه على أنّها ابتدائيّة. و"التسنيم" عَلَم لِعَين بعينها، سُمّيت به إمّا لأنّها أرفَع شراب في الجنّة، وإمّا لأنّها تأتيهم مِن فوق. رُوي أنّها تجري في الهواء متسنِّمة فتَنصبُّ في أوانيهم.[٩]

﴿عَيۡنٗا﴾ نصبٌ على الاختصاص وجُوّز أن تكون حالًا مِن ﴿تَسۡنِيمٍ﴾ مع كونه جامدًا لاتّصافه بقوله تعالى: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، فإنّهم يشربونها صِرفًا، وتُمزَج لسائر أهل الجنّة، فـ"الباء" مزيدة أو بمعنى "مِن".

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٩٩/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النخَعي وابن يعمُر والعِجلي والأسدي، والخاشع عن أبي بكر، والشَّيزريُّ وابن المغيرة كلاهما عن الكسائي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٦؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٩٠١.

٣ وفي هامش م: مجاهد.

٤ مروي عن مجاهد في معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٨/٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٢٢/٢٠.

٥ في هامش م: عطاء.

٦ مروي عن عطاء في معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٨/٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٢٢/٢٠.

٧ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٤٤٨/٤-٤٤٩؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٢٢/٢٠.

٨ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٨/٨؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٢٢/٢٠.

٩ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٤.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾... إلخ، حكايةٌ لبعض قبائح مشركي قريشٍ، جيء بها تمهيدًا لذِكر بعض أحوال الأبرار في الجنّة. ﴿كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ أي: يستهزئون بفقرائهم كعَمّار وصُهيب وخَبّاب وبلال وغيرِهم مِن فقراء المؤمنين. وتقديمُ الجارّ والمجرور إمّا للقصر إشعارًا بغاية شَناعة ما فعلوا، أي: كانوا مِن الذين آمنوا / يضحكون مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك، على مِنهاج قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم، ١٠/١٤]، أو لمراعاة الفواصل. [٢٨٣و]

﴿وَإِذَا مَرُّواْ﴾ أي: فقراء المؤمنين ﴿بِهِمۡ﴾ بالمشركين وهم في أنديتهم، وهو الأظهر، وإن جاز العكس أيضًا. ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ أي: يغمِز بعضُهم بعضًا ويُشيرون بأعينهم.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ مِن مجالسهم ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ ملتذِّين بذِكرهم بالسوء والسخرية منهم. وفيه إشارة إلى أنّهم كانوا لا يفعلون ذلك بمَرأى مِن المارّين بهم، ويكتفون حينئذ بالتغامز. وقُرئ: "فَاكِهِينَ".[١] قيل: هما بمعنًى. وقيل: فَكِهين أشِرين. وقيل: فَرِحين وفاكهِين متفكِّهين. وقيل: ناعِمين. وقيل: مازِحين.[٢]

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ﴾ أينما كانوا ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي: نسَبوا المسلمين ممّن رأوهم ومِن غيرهم إلى الضلال بطريق التأكيد.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ على المسلمين ﴿حَٰفِظِينَ﴾ حال مِن واو ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قالوا ذلك والحال أنّهم ما أُرسلوا مِن جهة الله تعالى موكَّلين بهم، يحفظون عليهم أحوالهم، ويُهيمِنون على أعمالهم، ويشهدون برُشدهم وضلالهم. وهذا تهكُّم بهم وإشعارٌ بأنّ ما اجترأوا عليه مِن القول مِن وظائف مَن أُرسِل مِن جهته تعالى.

وقد جُوّز أن يكون ذلك مِن جملة قول المجرمين، كأنّهم قالوا: "إنّ هؤلاء لضالُّون وما أرسلوا علينا حافظين" إنكارًا لصدِّهم عن الشِّرك ودعائهم إلى الإسلام.[٣]

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأبو بكر وابن عامر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٥٤/٢-٣٥٥، ٣٩٩.

٢ هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ٢٢٤/٢٠.

٣ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٣/٤.

وإنّما قيل: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ نقلًا له بالمعنى كما في قولك: "حَلَف لَيفعلنّ"، لا بالعبارة كما في قولك: "حَلَف لأفعلنّ".

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: المعهودون مِن الفقراء ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: مِن المعهودين، وهو الأظهر. وإن أمكَن التعميم مِن الجانبين. / ﴿يَضْحَكُونَ﴾ [٢٨٣ظ] حين يرَونهم أذِلّاء مغلولين قد غشِيَهم فنون الهَوان والصَّغار بعد العِزّة والكِبْر ورَهَقهم ألوانُ العذاب بعد التنعّم والتَّرفّه. وتقديم الجارّ والمجرور للقَصْر تحقيقًا للمقابلة، أي: فاليوم هم مِن الكفّار يضحكون، لا الكفّار منهم كما كانوا يفعلون في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَضْحَكُونَ﴾، أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما فيهم مِن سوء الحال. وقيل: يُفتح للكفّار بابٌ إلى الجنّة، فيقال لهم: "اخرجوا إليها" فإذا وصلوا إليها أُغلِق دونهم، يُفعَل بهم ذلك مِرارًا، ويضحك المؤمنون منهم.[١] ويأباه قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾؛ فإنّه صريح في أنّ ضَحِك المؤمنين منهم جزاءٌ لضَحِكهم منهم في الدنيا، فلا بدّ مِن المجانَسة والمشاكَلة حتمًا. والتثويب والإثابة: المُجازاة. وقُرئ بإدغام "اللام" في "الثاء".[٢]

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة المطفِّفين سقاه الله تعالى يوم القيامة مِن الرحيق المختوم».[٣]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٣/٤.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٧/٢.

٣ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١/٢٩ (المطففين، ١/٨٣)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤٤٠/٤ (المطففين، ١/٨٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٣/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة التطفيف

ويقال لها: سورة «المطففين». واختلف في كونها مكيةً أو مدنيةً؛ فعن ابن مسعود والضحاك أنها مكيةٌ. وعن الحسن وعكرمة أنها مدنية. وعليه السدِّيُّ؛ قال: كان بالمدينة رجلٌ يُكْنَى أبا جهينةَ، له مكيالان يأخذ بالأَوْفَى ويُعطي بالأنقص، فنزلت.

وعن ابن عباس رواياتٌ، فأخرج ابن الضريس عنه أنه قال: آخرُ ما نزل بمكة سورة المطفِّفين[١].

وأخرج ابن مردويه والبيهقي عنه أنه قال: أول ما نزل بالمدينة «ويل للمطففين»[٢]. ويؤيِّد هذه الرواية ما أخرجه النسائيُّ وابن ماجه والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» بسندٍ صحيح وغيرِهم عنه قال: لمَّا قدم النبيُّ ﷺ المدينةَ كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأَحْسَنوا الكيل بعد ذلك[٣].

وفي روايةٍ عنه أيضاً وعن قتادة: أنها مكيةٌ إلا ثمان آياتٍ من آخرها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ إلخ[٤].

وقيل: إنها مدنيةٌ إلا ستَّ آياتٍ من أوَّلها.

وبعضُ مَن يُثبت الواسطة بين المكيِّ والمدنيِّ يقول: إنها ليست أحدهما، بل

---

(١) فضائل القرآن لابن الضريس (١٧)، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٦/ ٣٢٣.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٢٣، وينظر دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٤٣-١٤٤.
(٣) السنن الكبرى للنسائي (١١٥٩٠)، وسنن ابن ماجه (٢٢٢٣)، وشعب الإيمان (٥٢٨٦).
(٤) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٢٥.

نزلت بين مكة والمدينة ليُصلح الله تعالى أمر أهل المدينة قبل ورود رسول الله ﷺ عليهم.

وآيُها ستٌّ وثلاثون بلا خلافٍ.

والمناسبةُ بينها وبين ما قبلها أنه سبحانه لمَّا ذكر فيما قبلُ السعداءَ والأشقياءَ ويومَ الجزاء وعظَمَ شأنِه، ذكر عز وجل هنا ما أعدَّ جلَّ وعلا لبعض العصاة، وذَكَره سبحانه بأخسِّ ما يقع من المعصية، وهو التطفيفُ الذي لا يكاد يُجدي شيئاً في تثمير المال وتنميته، مع اشتمال هذه السورة من شرح حال المكذِّبين المذكورين هناك على زيادةِ تفصيلٍ كما لا يخفى.

وقال الجلال السيوطيُّ[1]: الفصلُ بهذه السورة بين «الانفطار» و«الانشقاق» - التي هي نظيرتُها من أوجهٍ - لنكتةٍ لطيفةٍ ألهمنيها الله تعالى، وذلك أنَّ السور الأربع: هذه والسورتان قبلها و«الانشقاق»، لمَّا كانت في صفةِ حالِ يوم القيامة ذُكرت على ترتيبِ ما يقع فيه، فغالبُ ما وقع في «التكوير» وجميعُ ما وقع في «الانفطار» يقع في صدر يوم القيامة، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ومقاساةُ الأهوال، فذكره في هذه السورة بقوله تعالى: (يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) ثم بعد ذلك تحصُلُ الشفاعة العظمى فتُنْشَرُ الصحف، فآخِذٌ باليمين، وآخِذٌ بالشمال، وآخِذٌ من وراء ظهره، ثم بعد ذلك يقع الحساب كما ورد بذلك الآثارُ، فناسَبَ تأخُّرَ سورة الانشقاق التي فيها إيتاءُ الكتب والحساب عن السورة التي فيها ذكر الموقف، والسورة التي فيها ذِكْرُه عن السورة التي فيها ذكر مبادي أحوال[2] اليوم.

ووجهٌ آخَرُ: وهو أنه جلَّ جلالُه لمَّا قال في «الانفطار»: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ وذلك في الدنيا، ذكر سبحانه في هذه حالَ ما يكتبه الحافظون، وهو مرقومٌ يُجْعَلُ في عِلِّيينَ أو سِجِّينٍ، وذلك أيضاً في الدنيا كما تدلُّ عليه الآثار، فهذه حالةٌ ثانيةٌ للكتاب ذُكرت في السورة الثانية. وله حالةٌ ثالثةٌ متأخِّرةٌ

(١) في الدرر في تناسق الآيات والسور ص٩٣.
(٢) في الدرر: أهوال.

عنهما، وهي إيتاؤه صاحبَه باليمين أو غيرها، وذلك يومَ القيامة، فناسَبَ تأخيرَ السورة التي فيها ذلك عن السورة التي فيها الحالة الثانية. انتهى، وهو - وإنْ لم يَخْلُ عن لطافةٍ - للبحثِ فيه مجالٌ، فتذكر.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ قيل: الويل شدةُ الشرِّ. وقيل: الحزن والهلاك. وقيل: العذاب الأليم. وقيل: جبلٌ في جهنم، وأخرج ذلك عن عثمان مرفوعاً ابنُ جرير بسندٍ فيه نظر(١).

وذهب كثيرٌ إلا أنه وادٍ في جهنم؛ فقد أخرج الإمام أحمد والترمذيُّ عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ويلٌ وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلُغَ قَعْرَه»(٢). وفي صحيحي ابن حبان والحاكم بلفظ: «وادٍ بين جبلين يهوي فيه الكافر» إلخ(٣).

ورَوَى ابن أبي حاتم عن عبد الله: أنه وادٍ في جهنم من قيحٍ(٤).

---

(١) تفسير الطبري ٢/ ١٦٤، وذكره ابن كثير عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة وقال: غريب جدًّا. وقال ابن رجب في التخويف من النار ص٨٤: في إسناده نظر.

(٢) مسند أحمد (١١٧١٢)، وسنن الترمذي (٢٥٧٦) و(٣١٦٤) وهو من طريق درَّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ﷺ به. وإسناده ضعيف لضَعْفِ درَّاج - وهو ابن سمعان - في روايته عن أبي الهيثم، وهو سليمان بن عمرو العتواري.

(٣) ذكره بهذا اللفظ المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٣٦٤، وابن رجب في التخويف من النار ص٨٤ ونسباه للترمذي، ولم نقف عليه فيه، ثم قال المنذري: ورواه ابن حبان في صحيحه بنحو رواية الترمذي، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. ولم نقف عليه بهذا اللفظ أيضاً عند ابن حبان والحاكم، وهو في صحيح ابن حبان (٧٤٦٧)، والمستدرك ٢/ ٥٠٧، و٤/ ٥٩٦ باللفظ الأول.

(٤) ذكره عن ابن أبي حاتم بإسناده ابن رجب في أهوال القبور ص٨٤، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٩١١٤)، وفي إسناده يحيى الحمامي، وهو ضعيف كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٥.

وفي كتاب «المفردات» للراغب[1]: قال الأصمعي: ويل: قُبُوح[2]، وقد يُستعمل للتحسُّر، ومَن قال: ويلٌ وادٍ في جهنم، لم يُرِدْ أنَّ ويلاً في اللغة موضوعٌ لهذا، وإنما أراد: مَن قال الله تعالى فيه ذلك فقد استحقَّ مقرًّا من النار، وثَبت ذلك له. انتهى، والظاهرُ أنَّ إطلاقه على ذلك كإطلاق جهنم على ما هو المعروف فيها، فلينْظَر من أيِّ نوعٍ ذلك الإطلاق.

وأيًّاما كان فهو مبتدأ وإن كان نكرةً؛ لوقوعه في موقع الدعاء، و«للمطففين» خبرُه. والتطفيفُ: البخس في الكيل والوزن؛ لِمَا أنَّ ما يُبْخَسُ في كيلٍ أو وزنٍ واحدٍ شيءٌ طفيفٌ، أي: نزرٌ حقير، والتفعيل فيه للتعدية أو للتكثير، ولا ينافي كونَه من الطفيف بالمعنى المذكور؛ لأن كثرة الفعل بكثرة وقوعه، وهو بتكراره لا بكثرة متعلّقه.

وعن الزجَّاج أنَّه مِن طَفِّ الشيءِ [وهو] جانبه[3].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾﴾ إلخ صفةٌ مخصِّصةٌ للمطففين الذين نزلت فيهم الآية، أو صفةٌ كاشفةٌ لحالهم شارحةٌ لكيفية تطفيفهم الذي استحقُّوا به الويل. أي: إذا أخذوا من الناس ما أخذوا بحُكْمِ الشراء ونحوه كيلاً يأخذونه وافياً وافراً. وتبديل كلمة «على» هنا بمِن قيل: لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء، أو للإشارة إلى أنه اكتيالٌ مُضِرٌّ للناس لا على اعتبارِ الضرر من حيث الشرط[4] الذي يتضمَّنه «إذا»؛ لإخلاله بالمعنى، بل في نفس الأمر بموجب الجواب، بناءً على أنَّ المراد بالاستيفاء ليس أخذَ الحقِّ وافياً من غير نقصٍ، بل مجرَّدَ الأَخْذِ الوافي الوافر حَسْبَما أرادوا بأيِّ وجهٍ يتيسَّر من وجوه الحيل، وكانوا يفعلونه بكَبْسِ المكيل ودَعْدَعةِ المكيال إلى غير ذلك.

---

(١) مادة (ويل).

(٢) في المفردات: قبح، وذكره عن الأصمعي بلفظ المصنف ابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٤٨٦، وصاحب اللسان (ويل)، والحافظ في الفتح ١٠/ ٥٥٣. والقُبْح والقُبُوح بمعنى، وهما من مصادر قَبُح كما في القاموس (قبح).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٧، وما بين حاصرتين منه.

(٤) في تفسير أبي السعود ٩/ ١٢٤ (والكلام منه): لا على اعتبار الضرر في حيز الشرط، ولعله أنسب بالسياق.

وقيل: إن ذلك لاعتبارِ أنَّ اكتيالهم لِمَا لهم من الحقِّ على الناس، فعن الفرَّاء أنَّ «مِن» و«على» يعتقبان في هذا الموضع، فيقال: اكتلتُ عليه، أي: أخذتُ ما عليه كيلاً، و: اكتلت منه، أي: استوفيتُ منه كيلاً[1].

وتعقّب[2] بأنه مع اقتضائه لعدم شمول الحكم لاكتيالهم قبل أن يكون لهم على الناس شيءٌ بطريق الشراء ونحوِه ـ مع أنه الشائع فيما بينهم ـ يقتضي أن يكون معنى الاستيفاء أَخْذَ ما لَهُم على الناس وافياً من غير نقصٍ؛ إذ هو المتبادر منه عند الإطلاق في معرض الحقِّ، فلا يكون مداراً لذمِّهم والدعاءِ عليهم. وحَمْلُ ما لَهم عليهم على معنى: ما سيكون لهم عليهم، مع كونه بعيداً جدًّا، مما لا يُجْدي نفعاً؛ فإنَّ اعتبار كون المكيل لهم حالاً كان أو مآلاً يستدعي كونَ الاستيفاء بالمعنى المذكور حتماً. انتهى.

وأقول: إنْ قُطِعَ النظر عن كون الآية نازلةً في مطففين صفتُهم أَخْذُ مكيلِ الناس إذا اكتالوا وافراً حسبما يريدون، فلا بأس بحملها على ما يدلُّ على أنَّ المأخوذ حقٌّ حالاً أو مآلاً، وكونُ المتبادر حينئذٍ من الاستيفاء أخذَ ما لَهُم وافياً من غير نقصٍ مسلَّمٌ، لكنه لا يضرُّ. قوله: فلا يكون مداراً لذمِّهم والدعاءِ عليهم. قلنا: مدارُ الذمِّ ما تضمَّنه مجموعُ المتعاطفين، والكلامُ كقولك: فلانٌ يأخذ حقَّه من الناس تامًّا ويعطيهم حقَّهم ناقصاً، وهي عبارةٌ شائعةٌ في الذمِّ، بل الذمُّ بها أشدُّ من الذمِّ بنحو: يأخذ ناقصاً ويعطي ناقصاً، وكونُه دون الذمِّ بنحوِ قولك: يأخذ زائداً ويعطي ناقصاً، لا يضرُّ كما لا يخفى.

ثم قد يقال: إن الأغلب في اكتيال الشخص من شخصٍ كونُ المكيل حقًّا له بوجهٍ من الوجوه، ولعل مبنَى كلام الفرَّاء على ذلك، فتأمل.

وجوَّز[3] أن تكون «على» متعلِّقةً بـ «يستوفون»، ويكون تقديمها على الفعل

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/٢٤٦، والكشاف ٤/٢٣٠، والبحر ٨/٤٣٩، وتفسير أبي السعود ٩/١٢٥.

(٢) المتعقب هو أبو السعود في تفسيره ٩/ ١٢٤.

(٣) بعدها في (م): على، وهو خطأ.

لإفادة الخصوصية، أي: يستوفون على الناس خاصةً فأمَّا أنفسهم فيستوفون لها.

وتعقَّب[1] بأنَّ القَصْرَ بتقديم الجارِّ والمجرور إنما يكون فيما يمكن تعلُّق الفعل بغير المجرور أيضاً حَسْب تعلُّقِه به، فيقصَدُ بالتقديم قَصْرُه عليه بطريق القلب أو الإفراد أو التعيين حَسْبَما يقتضيه المقامُ، ولا ريبَ في أنَّ الاستيفاء الذي هو عبارةٌ عن الأخذ الوافي مما لا يتصوَّرُ أن يكون على أنفسهم حتى يُقْصَدَ بتقديم الجارِّ والمجرور قَصْرُه على الناس، على أنَّ الحديث واقعٌ في الفعل لا فيما وقع عليه. انتهى.

وأجيب بأنَّ المراد بالاستيفاء المعدَّى بـ «على» على ذلك الإضرارُ، فكأنه قيل: إذا اكتالوا يضرُّون الناس خاصةً ولا يضرُّون أنفسهم بل ينفعونها، والقَصْرُ بطريق القلب، والإضرارُ مما يمكن أن يكون لأنفسهم كما يمكن أن يكون للناس، وإن كان ما به الإضرارُ مختلفاً، حيث إنَّ إضرارهم أنفسَهم بأخذ الناقص وإضرارَهم الناسَ بأخذ الزائد، ثم إن خصوصية ما وقع عليه الفعل هو مدارُ الذمِّ والدعاءِ بالويل، وبه يجاب عمَّا في حيِّز العلاوة. انتهى، ولا يخفى ما فيه فتدبر.

والضمير المنفصل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ للناس، وما تقدَّم في الأخذ من الناس وهذا في الإعطاء، فالمعنى: وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم للبيع ينقصون. وكال تُستعمل مع المكيل باللام وبدونه، فقد جاء في اللغة على ما قيل: كال له، وكاله بمعنى: كال له.

وجَعَلَ غيرُ واحدٍ «كالَه» من باب الحذف والإيصال، على أنَّ الأصل: كال له، فحذف الجارُّ وأُوْصِل الفعل، كما في قوله:

ولقد جَنَيْتُكَ أَكْمُؤًا وعَسَاقِلاً ولقد نهيتُكَ عن بناتِ الأَوْبَرِ[2]

---

(١) المتعقب هو أبو السعود في تفسيره ٩/ ١٢٥.

(٢) المقتضب ٤/ ٤٨، ومجالس ثعلب ص٥٥٦، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٧٤، وسر صناعة الإعراب ١/ ٣٦٦، والإنصاف في مسائل الخلاف ١/ ٣١٩، والكشاف ٤/ ٢٣٠، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٥. قال الشهاب: الأكمؤ جمع كمأة، والعاقل ضرب منها، وصَرْفُه للضرورة هنا، وعطفه على الأكمؤ هنا من قبيل عطف جبريل على الملائكة، وبنات أوبر ضرب من الكمأة أيضاً، وهو أردؤها.

وقولِهم في المثل: الحريصُ يصيدك لا الجواد. أي: جنيتُ لك، ويصيد لك.

وجوِّز أن يكون الكلام على حذف المضاف ـ وهو: مكيل وموزون ـ وإقامةِ المضاف [إليه][1] مقامه، والأصل: وإذا كالوا مكيلَهم أو وزنوهم[2].

وعن عيسى بن عمر وحمزة أن المكيل له والموزونَ له محذوفٌ، و«هم» ضميرٌ مرفوعٌ تأكيدٌ للضمير المرفوع وهو الواو، وكانا يقفان على الواوين وقيفةً يبيِّنان بها ما أرادوا[3].

وقال الزمخشري: لا يصحُّ كونُ الضمير مرفوعاً للمطففين؛ لأنه يكون المعنى عليه: إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا تولَّوا الكيلَ أو الوزنَ هم على الخصوص أَخْسَروا، وهو كلامٌ متنافرٌ؛ لأنَّ الحديث واقعٌ في الفعل لا في المباشِر[4].

وذلك على ما في «الكشف» لأنَّ التأكيد اللفظيَّ يدفعُه المقام، فليس المرادُ أن يحقّق أنَّ الكيل صَدَرَ منهم لا من عبيدهم مثلاً، والتقوّي وحده يدفعه تركُ الفاء في جواب «إذا»؛ لأنَّ الفصيح إذ ذاك: فهم يخسرون، فيتعيَّن الحملُ على التخصيص، ويظهرُ العذرُ في ترك الفاء إذ المعنى: لا يُخْسِرُ إلا هم، ويلزمُ التنافُرُ وفواتُ المقابلة[5]، هذا و«هم» أوّلاً في «كالوهم» مانعٌ من هذا التقدير أشدَّ المنع، والحملُ على حذف الخبر من أحدهما ـ وهو شَطْرُ الجزاء ـ لا نظيرَ له.

وقيل: إنه يُبْعِدُ كونَ الضمير مرفوعاً عدمُ إثبات الألف بعد الواو وقد تقرَّر في علم الخطِّ إثباتُها بعدها في مثل ذلك، وجرى عليه رسمُ المصحف العثماني في نظائره، وكونُه هنا بالخصوص مخالفاً لِمَا تقرَّر ولِمَا سُلك في النظائر بعيدٌ كما لا يخفى.

---

(١) ما بين حاصرتين من الكشاف ٤/ ٢٣٠، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٥.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: أو وزنوا موزونهم.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٣١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥٠، والبحر ٨/ ٤٣٩، والمشهور عن حمزة كقراءة الجماعة.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٣٠.

(٥) أي: مقابلة الاكتيال بالكيل، و«على الناس» بـ «للناس»، و«يستوفون» بـ «يُخْسِرون». حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٥.

ولعل الاقتصار على الاكتيال في صورة الاستيفاء، وذِكْرَ الكيل والوزن في صورة الإخسار؛ [لما][1] أنَّ المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين؛ لتمكُّنِهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة، وإذا أَعْطَوا كالوا ووزنوا لتمكُّنهم من البخس في النوعين جميعاً.

والحاصل أنه إنما جاء النظم الجليل هكذا ليطابق مَن نزل فيهم، فالصفةُ تَنْعَى عليهم[2] ما كانوا عليه من زيادة البخس والظلم، وهذا صحيح، جُعِلَتْ الصفة مخصِّصةً لهؤلاء المطفِّفين كما هو الأظهر أو كاشفةً لحالهم، فقد أريد بالأول معهودٌ ذهنيٌّ.

وقال شيخ مشايخنا العلَّامة السيد صبغةُ الله الحيدريُّ في ذلك: إنَّ التطفيف في الكيل يكون بشيءٍ قليلٍ لا يُعْبأُ به في الأغلب، دون التطفيف في الوزن، فإنَّ أدنى حيلةٍ فيه يفضي إلى شيءٍ كثيرٍ.

وأيضاً الغالبُ فيما يوزن ما هو أكثر قيمةً مما يكال، فإذا أخبرتِ الآيةُ بأنهم لا يُبقون على الناس ما هو قليلٌ مَهينٌ من حقوقهم، عُلم أنهم لا يُبقون عليهم الكثير الذي لا يتسامح به أكثرُ الناس ـ بل أهلُ المروءات أيضاً ـ إلا نادراً بالطريق الأولى، بخلافِ ما إذا ذكر أنهم يُخْسِرون الناسَ بالأشياء الجزئية كما يُفهم من ذكر الإخسار في الكيل، فإنه لا يُعْلم منه أنهم يُخْسِرونهم بالشيء الكثير أيضاً، بل ربما يتوهَّم من تخصيص الجزئيات[3] بالذكر أنهم لا يتجرؤون على إخسارهم بكلِّيات الأموال، فلا بدَّ في الشقِّ الثاني من ذكر الإخسار في الوزن أيضاً، فتكون الآيةُ مناديةً على ذميم أفعالهم ناعيةً عليهم بشنيع أحوالهم. انتهى.

وتعقِّب بأنه لا يحسم السؤال؛ لجواز أن يقال: لمَ لمْ يقُل: إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا وزنوهم يُخْسِرون، ليعلم من القرينتين أنهم يستوفون الكثير ويُخْسِرون بالنزر الحقير بالطريق الأَوْلى، ويكون في الكلام ما هو من قبيل الاحتباك.

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٩/ ١٢٥، والكلام فيه بنحوه.

(٢) أي: تُظْهِر، في القاموس: وهو يَنْعَى على زيد ذنوبه: يُظهرها ويَشْهَرُها.

(٣) في (م): الجزئية.

وقال الزجَّاج: المعنى: إذا اكتالوا من الناس استَوْفَوْا عليهم الكيل، وكذلك إذا اتَّزنوا استَوْفَوا الوزن، ولم يذكر «إذا اتَّزنوا» لأن الكيل والوزن بهما الشراءُ والبيعُ فيما يكالُ ويوزن[١].

ومراده على ما نصَّ عليه الطيبيُّ: أنه استغني بذكر إحدى القرينتين عن الأخرى لدلالة القرينة الآتية عليها، وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ المطفِّفين باعةٌ، وهم في الغالب يشترون الشيء الكثير دفعةً ثم يبيعونه متفرِّقاً في دفعاتٍ، وكم قَدْ رأينا منهم مَن يشتري من الزراعين مقداراً كثيراً من الحبوب مثلاً في يومٍ واحد، فيدَّخرُه ثم يبيعه شيئاً فشيئاً في أيامٍ عديدة، ولما كانت العادةُ الغالبةُ أَخْذَ الكثير بالكيل ذُكر الاكتيال فقط في صورة الاستيفاء، ولَمَّا كان ما يبيعونه مختلفاً كثرةً وقلةً ذكر الكيلُ والوزن في صورة الإعطاء، أو لَمَّا كان اختيارُ ما به تعيينُ المقدار مفوَّضاً إلى رأي مَن يشتري منهم ذُكرا معاً في تلك الصورة؛ إذ منهم مَن يختار الكيل ومنهم مَن يختار الوزن.

وأنت تعلم أنَّ كونَ العادة الغالبةِ أَخْذَ الكثير في الكيل غيرُ مسلَّمٍ على الإطلاق، ولعله في بعض المواضع دون بعضٍ، وأهل بلدنا مدينةِ السلام اليومَ لا يكتالون ولا يكيلون أصلاً، وإنما عادتُهم الوزن والاتِّزانُ مطلقاً.

وعدمُ التعرُّضِ للمكيل والموزون في الصورتين ـ على ما قال غير واحدٍ ـ لأنَّ مساقَ الكلام لبيان سوء معاملة المطففين في الأخذ والإعطاء، لا في خصوصيةِ المأخوذ والمعطَى.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾ استئنافٌ واردٌ لتهويل ما ارتكبوه من التطفيف، والهمزةُ للإنكار والتعجيبِ، و«لا» نافيةٌ، فليست «ألا» هذه الاستفتاحيةَ أو التنبيهيةَ، بل المركَّبة[٢] من همزة الاستفهام و«لا» النافية، والظنُّ على معناه المعروفِ، و«أولئك» إشارةٌ إلى «المطففين»، ووضعُه موضعَ ضميرهم للإشعار

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٧.
(٢) في (م): مركبة.

بمناط الحكم الذي هو وصفُهم، فإنَّ الإشارة إلى الشيء متعرِّضةٌ له من حيث اتِّصافه بوَصْفِه، وأمَّا الضميرُ فلا يتعرَّضُ للوصف، وللإيذان بأنهم ممتازون بذلك الوصفِ القبيح عن سائر الناس أكملَ امتيازٍ، نازلون منزلةَ الأمور المشارِ إليها إشارةً حسيةً، وما فيه من معنى البعدِ للإشعار ببُعْدِ درجتهم في الشرارة والفساد، أي: ألا يظنُّ أولئك الموصوفون بذلك الوصفِ الشنيع الهائل أنهم مبعوثون ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥﴾ لا يقادَرُ قَدْرُ عظمه، فإنَّ مَن يظنُّ ذلك وإن كان ظنًّا ضعيفاً لا يكاد يتجاسر على أمثال هذه القبائح، فكيف بمن يتيقَّنه؟ ووصفُ اليوم بالعِظَم لعظم ما فيه، كما أنَّ جَعْلَه علةً للبعث باعتبارِ ما فيه. وقدَّر بعضهم مضافاً، أي: لحسابِ يومٍ.

وقيل: الظنُّ هنا بمعنى اليقين. والأول أَوْلَى وأبلغ.

وعن الزمخشريِّ أنه سبحانه جعلهم أسوأ حالاً من الكفار؛ لأنه أثبتَ جلَّ شأنُه للكفار ظنًّا، حيث حكى سبحانه عنهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا﴾ [الجاثية: ٣٢] ولم يثبته عز وجل لهم[(١)]، والمراد أنه تعالى نزلهم منزلةَ مَن لا يظنُّ ليصحَّ الإنكار.

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ - أي: لِحُكْمِه تعالى وقضائه عز وجل - منصوبٌ بإضمارِ «أعني»، وجوِّز أن يكون معمولاً لـ «مبعوثون»، أو مرفوع المحلِّ خبراً لمبتدأ مضمَرٍ، أي: هو - أو ذلك - يوم، أو مجرورٌ كما قال الفرَّاء بدلاً من «يوم عظيم»[(٢)]. وهو على الوجهين مبنيٌّ على الفتح لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعاً كما هو رأي الكوفيين، وقد مرَّ غيرَ مرَّةٍ، ويؤيِّد الوجهين قراءةُ زيد بن علي: «يومُ» بالرفع[(٣)]، وقراءةُ بعضهم كما حَكَى أبو معاذ: «يومِ» بالجر[(٤)].

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٢٣١، وعبارة الزمخشري: «ألا يظن» إنكار وتعجيب من عظيم حالهم في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يُخْطِرون ببالهم ولا يخمِّنون تخميناً أنهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرة والخردلة.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٦، والبحر ٨/ ٤٣٩-٤٤٠.

(٣) البحر ٨/ ٤٤٠.

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٠، والبحر ٨/ ٤٤٠.

وفي هذا الإنكار والتعجيب، وإيرادِ الظنِّ، والإتيان باسم الإشارة، ووصفِ يومِ قيامهم بالعظمة، وإبدالِ «يوم يقوم» إلخ منه على القول به، ووَصْفِه تعالى بربوبية العالمين، من البيان البليغ لعظم الذنب وتفاقُم الإثم في التطفيف ما لا يخفى، وليس ذلك نظراً إلى التطفيف من حيث هو تطفيفٌ، بل من حيث إنَّ الميزان قانونُ العدل الذي قامت به السماواتُ والأرض، فيعمُّ الحكمُ التطفيفَ على الوجه الواقع من أولئك المطفِّفين وغيره.

وصحَّ من رواية الحاكم والطبرانيِّ وغيرهما عن ابن عباس وغيره مرفوعاً: «خمسٌ بخمسٍ» قيل: يا رسول الله، وما خمسٌ بخمسٍ؟ قال: «ما نقض قومٌ العهدَ إلا سلَّط الله تعالى عليهم عدوَّهم، وما حَكَموا بغير ما أنزل الله تعالى إلَّا فَشا فيهم الفقرُ، وما ظهرتْ فيهم الفاحشةُ إلا فَشَا فيهم الموتُ، ولا طفَّفوا الكيلَ إلَّا مُنعوا النباتَ وأُخِذوا بالسنين، ولا مَنَعوا الزكاة إلَّا حُبِسَ عنهم القَطْرُ»(١).

وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول: اتَّقِ الله تعالى وأَوْفِ الكيل فإنَّ المطفِّفين يوقَفون يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى إنَّ العرق ليُلْجِمُهم(٢).

وعن عكرمة: أَشْهَدُ أنَّ كلَّ كيَّالٍ ووزَّانٍ في النار. فقيل له: إنَّ ابنك كيَّالٌ ووزَّان؟ فقال: أشهد أنه في النار. وكأنه أراد المبالغة لما علم أنَّ الغالب فيهم التطفيفُ.

ومن هذا القبيل ما روي عن أبيٍّ رضي الله عنه: لا تلتمس الحوائجَ ممن رزقُه في رؤوس المكاييل وألْسُنِ الموازين. والله تعالى أعلم.

واستُدلَّ بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ إلخ على منع القيام للناس لاختصاصه بالله تعالى.

---

(١) المعجم الكبير (١٠٩٩٢) واللفظ له، وهو في مسند البزار (١٦٧٦ - كشف)، والمستدرك ٤/ ٥٤٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفيه بدل «إلا فشا فيهم الفقر»: «إلا ألقى الله بأسهم بينهم». وأخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٤٦٠بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٤٥٨، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٣٠، وعنه نقل المصنف هذا الخبر وكذا ما بعده من أخبار.

وأجاب عنه الجلال السيوطيُّ بأنه خاصٌّ بالقيام للمرء بين يديه، أمَّا القيامُ له إذا قدم ثم الجلوس فلا[١]. وأنت تعلم أنَّ الآية بمعزل عن أنْ يستدلَّ بها على ما ذُكِر ليُحْتاجَ إلى هذا الجواب، وأرى الاستدلال بها على ذلك من العَجَبِ العُجاب.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ عمَّا كانوا عليه من التطفيف والغَفْلةِ عن البعث والحساب ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾ إلخ تعليلٌ للردع أو وجوبِ الارتداع بطريق التحقيق.

و«كتاب» قيل: بمعنى مكتوب، أي: ما يُكتب من أعمال الفجَّار لفي.. إلخ، وقيل: مصدرٌ بمعنى الكتابة وفي الكلام مضافٌ مقدَّر، أي: كتابةُ عملِ الفجَّار لفي.. إلخ.

والمراد بالفجَّار هنا على ما قال أبو حيان: الكفار[٢]. وعلى ما قال غيرُ واحدٍ: ما يعمُّهم والفسقةَ، فيدخل فيهم المطفِّفون.

و«سجِّين» قيل: صفةٌ كسِكِّير. واختار غيرُ واحدٍ أنه عَلَمٌ لكتابٍ جامعٍ وهو ديوان الشرِّ دوِّن فيه أعمالُ الفَجَرة من الثَّقلين كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ فإنَّ الظاهر أنَّ «كتاب» بدلٌ من «سجِّين»، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ هو ضميرٌ راجعٌ إليه، أي: هو كتابٌ، وأصله وصفٌ من السَّجْن بفتح السين لقِّب به الكتابُ لأنه سببُ الحبس، فهو في الأصل فِعِّيلٌ بمعنى فاعِلٍ، أو لأنه مُلْقًى كما قيل تحت الأرضين في مكانٍ وَحْشٍ[٣] كأنه مسجونٌ، فهو بمعنى مفعول، ولا يلزمُ على جَعْلِه عَلَماً لِمَا ذُكر كونُ «الكتاب» ظرفاً لـ «الكتاب»؛ لِمَا سمعتَ من تفسير «كتاب الفجار»[٤]، وعليه يكون الكتاب المذكور ظرفاً للعمل المكتوب فيه، أو ظرفاً للكتابة.

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص٢٨٤.
(٢) البحر ٨/ ٤٤٠.
(٣) أي: قَفْرٍ. القاموس (وحش)، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٣٦.
(٤) يعني كون «الكتاب» فيه بمعنى مكتوب، أو مصدراً بمعنى الكتابة.

وقيل: الكتاب على ظاهره، والكلامُ نظير أنْ تقول: إنَّ كتاب حساب القرية الفلانية في الدستور الفلانيِّ، لمَا يشتملُ على حسابها وحسابِ أمثالها، في أنَّ الظرفية فيه من ظرفية الكلِّ للجزء.

وعن الإمام: لا اسْتِبْعادَ في أن يوضع أحدُهما في الآخر حقيقةً، أو ينقل ما في أحدهما للآخر[1].

وعن أبي عليٍّ أنَّ قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ﴾ أي: موضعُ كتابٍ، فـ «كتاب» على ظاهره، و«سجين» موضعٌ عنده، ويؤيِّده ما أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة مرفوعاً أنَّ «الفلق جبٌّ في جهنم مغطًّى، وسجِّين جبٌّ فيها مفتوح»[2] وعليه يكون «سجين» لشرِّ موضع في جهنم.

وجاء في عدَّة آثارٍ أنه موضعٌ تحت الأرض السابعة[3]، ولا منافاةَ بين ذلك وبين الخبر المذكور بناءً على القول بأن جهنم تحت الأرض.

وفي «الكشف»: لا يبعُدُ أن يكون «سجين» عَلَمَ الكتاب وعَلَمَ الموضع أيضاً؛ جمعاً بين ظاهر الآية وظواهر الأخبار.

وبعضُ من ذهب إلى أنه في الآية عَلَمُ الموضع قال: وما «أدراك ما سجين» على حذف مضافٍ، أي: وما أدراك ما كتابُ سجين؛ وقال ابن عطية: مَن قال بذلك فـ «كتاب» عنده مرفوعٌ على أنه خبر «إنَّ»، والظرف الذي هو «لفي سجِّين» ملغًى[4].

وتعقِّب بأنَّ إلغاءه لا يتسنَّى إلا إذا كان معمولاً للخبر أعني «كتاب»، أو لصفته أعني «مرقوم»، وذلك لا يجوز؛ لأنَّ «كتاب» موصوف فلا يعمل، ولأن «مرقوم»

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ٩٣.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ١٩٦، وذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أن هذا الحديث غريب منكر لا يصح.

(٣) ينظر ما ورد في ذلك من آثار في تفسير الطبري ٢٤/ ١٩٣-١٩٧.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٥١.

الذي هو صفته لا يجوز أن تدخل اللام في معموله، ولا يجوز أن يتقدَّم معمولُه على الموصوف. وفيه نظر.

وقيل: «كتاب» خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ». وقيل: خبر مبتدأ محذوفٍ هو ضميرٌ راجعٌ إلى «كتاب الفجار»، ومناطُ الفائدة الوصفُ، والجملة في البَيْنِ اعتراضيةٌ. وكِلَا القولين خلافُ الظاهر.

وعن عكرمة أن «سجِّين» عبارةٌ عن الخسارِ والهوان، كما تقول: بلغ فلانٌ الحضيضَ: إذا صار في غاية الخمول، والكلام في «وما أدراك» إلخ عليه يُعْلَم مما ذكرنا، وهذا خلافُ المشهور.

وزعم بعض اللغويين أنَّ نونه بدلٌ من لام، وأصلُه: سجِّيل(١)، فهو كجِبْرين في جبريل، فليس مشتقًّا من السَّجْن أصلاً.

و«مرقوم» من رَقَمَ الكتابَ: إذا أعجمه وبيَّنه لئلا يلغو، أي: كتابٌ بيِّنُ الكتابة، أو من رَقَمَ الكتابَ: إذا جَعَلَ له رقماً أي: علامةً، أي: كتابٌ معلَّمٌ يَعْلَم مَن رآه أنه لا خير فيه.

وقال ابن عباس والضحاك: «مرقوم»: مختوم بلغة حمير. وذكر بعضُهم أنه يقال: رَقَمَ الكتاب بمعنى خَتَمَه، ولم يخصَّه بلغةٍ دون لغةٍ.

وفي «البحر»: «مرقوم»، أي: مثبتٌ كالرقم لا يَبْلى ولا يُمْحَى(٢). وهو كما ترى.

وشاع الرَّقْمُ في الكتابة، قال أبو حيان: وهو أصلُ معناه، ومنه قولُ الشاعر:

سأَرْقُمُ في الماء القَرَاحِ إليكُمُ ... على بُعْدِكُم إن كان للماء راقمُ(٣)

---

(١) مشتقًّا من السِّجِلّ، وهو الكتاب. الدر المصون ٩/ ٧١٩.

(٢) البحر ٨/ ٤٤٠.

(٣) البحر ٨/ ٤٤٠، والبيت لأوس بن حجر، وهو في ديوانه ص١١٦، واللسان (رقم)، وفيه: وقولهم: هو يرقم في الماء، أي: بلغ من حذقه بالأمور أن يرقم حيث لا يثبت الرقم. اهـ. والقراح: الخالص. القاموس (قرح).

وأما الرَّقَم المعروفُ عند أهل الحساب فالظاهرُ أنه بمعنى العلامة، وخُصَّ بعلامة العدد فيما بينهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾ متصلٌ بقوله تعالى: (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وما بينهما اعتراضٌ، والمراد: للمكذبين بذلك اليوم، فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾﴾ إما مجرورٌ على أنه صفةٌ ذامَّةٌ لـ «المكذِّبين»، أو بدلٌ منه، أو مرفوعٌ أو منصوب على الذمِّ. وجوِّز أن يكون صفةً كاشفةً موضِّحةً.

وقيل: هو صفةٌ مخصِّصةٌ فارقةٌ، على أنَّ المراد: المكذِّبين بالحقِّ. والأول أظهر؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ إلخ يدلُّ على أنَّ القصد إلى المذمَّة، أي: وما يكذِّبُ بيوم الدين إلَّا كلُّ متجاوزٍ حدودَ النظر والاعتبار، غالٍ في التقليد، حتى جعل قدرةَ الله تعالى قاصرةً عن الإعادة، وعِلْمَه سبحانه قاصراً عن معرفة الأجزاء المتفرِّقةِ التي لا بدَّ في الإعادة منها، فعَدَّ الإعادة مُحالةً عليه عزَّ وجل.

﴿أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ أي: كثير الآثام منهمكٍ في الشهوات المخدجة[1] الفانية، بحيث شغلته عمَّا وراءها من اللذَّات التامة الباقية، وحملته على إنكارها.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقةُ بذلك ﴿قَالَ﴾ من فَرْطِ جهله وإعراضه عن الحقِّ الذي لا محيدَ عنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: هي حكاياتُ الأوَّلين، يعني هي أباطيلُ جاء بها الأوَّلون وطال أمدُ الإخبار بها ولم يظهر صدقُها. أو: أباطيلُ ألقيت على آبائنا الأوَّلين وكذَّبوها، ولسنا أولَ مكذِّبٍ بها حتى يكون التكذيبُ منَّا عجلةً وخروجاً عن طريق الحزم والاحتياط. والأول أظهرُ.

والآية قيل: نزلت في النضر بن الحارث. وعن الكلبي: أنها نزلت في الوليد بن المغيرة. وأيَّاما كان فالكلامُ على العموم.

وقرأ أبو حيوة وابن مقسم: «إذا يتلى» بتذكير الفعل. وقرئ: «أإذا تتلى» على الاستفهام الإنكاري[2].

---

(١) أي: الناقصة.

(٢) القراءتان في القراءات الشاذة ص١٧٠، والبحر ٨/ ٤٤١.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للمعتدي الأثيم عن ذلك القولِ الباطل، وتكذيبٌ له فيه.

وقوله عز وجل: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ بيانٌ لِمَا أدَّى بهم إلى التفوُّه بتلك العظيمة، أي: ليس في آياتنا ما يصحِّح أن يقال في شأنها مثلُ تلك المقالةِ الباطلة، بل رَكِبَ قلوبَهم وغَلَبَ عليها ما استمرُّوا على اكتسابه من الكفر والمعاصي حتى صار كالصدأ في المرآة، فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحقِّ، فلذلك قالوا ما قالوا.

والرين في الأصل: الصدأ؛ يقال: ران عليه الذنبُ وغان عليه رَيْناً وغيناً، ويقال: ران فيه النومُ، أي: رسخ فيه. وفي «البحر»: أصل الرين الغلبةُ، يقال: رانت الخمر على عقل شارِبها، أي: غلبت، وران الغَشْيُ على عقل المريض، أي: غلب. وقال أبو زيد: يقال: رِيْنَ بالرجل يُران به ريناً: إذا وقع فيما لا يستطيع منه الخروج[(١)].

وأريدَ به حبُّ المعاصي الراسخُ، بجامعِ أنه كالصدأ المسوِّد للمرآة والفضةِ مثلاً، المغيِّرِ عن الحالة الأصلية. وأخرج الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ والحاكم وصحَّحاه والنسائيُّ وابن ماجه وابنُ حبَّان وغيرُهم عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ العبد إذا أذْنَب ذنباً نُكتتْ في قلبه نكتةٌ سوداءُ، فإنْ تابَ ونَزَعَ واستغفر صُقِلَ قلبه، وإن عاد زادتْ حتى تعلوَ قلبَه، فذلك الرَّانُ الذي ذكر الله تعالى في القرآن ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[(٢)].

وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أنه قال: كانوا يرون أنَّ الرين هو الطبعُ[(٣)].

وذكروا له أسباباً، وفي حديث أخرجه عبد بن حميد من طريق خليد بن الحكم عن أبي المجبَّر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أربعُ خصالٍ مُفْسِدةٌ للقلوب:

---

(١) البحر ٨/٤٣٨.
(٢) مسند أحمد (٧٩٥٢)، وسنن الترمذي (٣٣٣٤)، وسنن النسائي الكبرى (١١٥٩٤)، وسنن ابن ماجه (٤٢٤٤)، وصحيح ابن حبان (٢٧٨٧)، والمستدرك ٢/٥١٧.
(٣) الدر المنثور ٦/٣٢٦.

مُجاراةُ الأحمق؛ فإنْ جاريتَه كنتَ مثله وإنْ سكتَّ عنه سلمتَ منه، وكثرةُ الذنوب مفسدةٌ للقلوب، وقد قال الله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، والخلوةُ بالنساء والاستماعُ منهنَّ[١] والعملُ برأيهنَّ، ومجالسةُ الموتَى» قيل: يا رسول الله، مَن هم؟ قال: «كلُّ غنيٍّ قد أبطره غناه»[٢].

وقرئ بإدغام اللام في الراء[٣]، وقال أبو جعفر بن الباذش: أجمعوا - يعني القراءَ - على إدغام اللام في الراء، إلا ما كان من وَقْفِ حفصٍ على «بل» وقفاً خفيفاً يسيراً لتبيين الإظهار. وليس كما قال من الإجماع ففي «اللوامح» عن قالون من جميع طرقه إظهارُ اللام عند الراء، نحو قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] ﴿بَل رَّبُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٦] وفي كتاب ابن عطية: وقرأ نافع: «بل ران» غير مدغمٍ، وفيه أيضاً: وقرأ نافع أيضاً بالإدغام والإمالة[٤].

وقال سيبويه في اللام مع الراء نحو «اشْغَل رحمه»[٥]: البيانُ والإدغام حسنان. وقال أيضاً: فإذا كانت - يعني اللام - غيرَ لام التعريف نحو لام «هل» و«بل» فإنَّ الإدغام أحسن، فإن لم تدغم فهي لغةٌ لأهل الحجاز وهي عربية جائزة[٦].

وفي «الكشاف»: قرئ بإدغام اللام في الراء وبالإظهارِ، والإدغامُ أجود وأُميلت الألف وفُخِّمَتْ[٧]. فليحفظ.

---

(١) في الأصل و(م): والاستمتاع بهن، وفي الدر المنثور ٦/ ٣٢٦ (والكلام منه): والاستمتاع منهن، والمثبت من باقي المصادر على ما يأتي.

(٢) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٢٦، وأخرجه أيضاً أبو موسى المديني في التتمة كما في توضيح المشتبه ٨/ ٤٧، ومن طريقه ابن الأثير في أسد الغابة ٦/ ٢٧٥. وجاء في توضيح المشتبه: «مجازاة الأحمق، إن جازيته...» كلاهما بالزاي. وأبو المجبَّر، بتشديد الباء المفتوحة كما ذكر صاحب التوضيح، وقال: له صحبة، واختلف فيه هل هو بجيم أم بمهملة.

(٣) وهي قراءة الجماعة سوى حفص. التيسير ص١٤٢.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٢، والكلام من البحر ٨/ ٤٤١.

(٥) كذا في الأصل و(م) والبحر، وفي الكتاب ٤/ ٤٥٢: رحبة. والرَّحَبة: الأرض الواسعة المِنْبات المِحْلال. القاموس (رحب).

(٦) الكتاب ٤/ ٤٥٧، والبحر ٨/ ٤٤١، والكلام منه.

(٧) الكشاف ٤/ ٢٣٢، والبحر ٨/ ٤٤١.

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وزجرٌ عن الكسب الرائن، أو بمعنى حقًّا ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: هؤلاء المكذِّبين ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ لا يرونه سبحانه وهو عز وجل حاضرٌ ناظرٌ لهم، بخلاف المؤمنين، فالحجابُ مجازٌ عن عدم الرؤية؛ لأنَّ المحجوب لا يرى ما حُجِبَ. أو الحَجْبُ: المنعُ، والكلام على حذف مضافٍ، أي: عن رؤية ربِّهم لممنوعون فلا يرونه سبحانه.

واحتجَّ بالآية مالكٌ على رؤية المؤمنين له تعالى من جهة دليل الخطاب، وإلا فلو حُجِبَ الكلُّ لَمَا أَغْنَى هذا التخصيصُ. وقال الشافعي: لمَّا حَجَبَ سبحانه قوماً بالسخط دلَّ على أن قوماً يرونه بالرضا. وقال أنس بن مالك[(١)]: لمَّا حجب عز وجل أعداءه سبحانه فلم يروه، تجلَّى جلَّ شأنه لأوليائه حتى رأوه عز وجل.

ومَن أنكر رؤيته تعالى كالمعتزلة قال: إنَّ الكلام تمثيلٌ للاستخفاف بهم وإهانتهم؛ لأنه لا يؤذَنُ على الملوك إلا للوجهاء المكرَّمين لديهم، ولا يُحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم، كما قال:

إذا اعْـتَـرَوا بـابَ ذي عُـبِّـيَّـةٍ رُجِـبـوا والناسُ من بين مَرْجوبٍ ومَحْجوبِ[(٢)]

أو هو بتقدير مضافٍ، أي: عن رحمة ربهم ـ مثلاً ـ لمحجوبون، وعن ابن عباس وقتادة ومجاهد تقديرُ ذلك، وعن ابن كسيان تقدير الكرامة. لكنهم أرادوا عمومَ المقدَّر للرؤية وغيرِها من ألطافه تعالى.

والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «محجوبون»، وهو العامل في «يومئذ»، والتنوينُ فيه تنوينُ عوضٍ، والمعوَّضُ عنه هنا «يقوم الناس» السابقُ، كأنه قيل: إنهم لمحجوبون عن ربِّهم يومَ إذ يقوم الناس لربِّ العالمين.

---

(١) كذا في الأصل و(م) والبحر، والصواب: مالك بن أنس، كما ذكر الثعلبي والواحدي والبغوي وابن الجوزي والقرطبي والنسفي في تفاسيرهم عند تفسير هذه الآية.

(٢) البيت في الكشاف ٤/ ٢٣٢ والبحر ٨/ ٤٤١ دون نسبة. وجاء في هامش الأصل و(م): قوله: إذا اعتروا... إلخ، عراه واعتراه: إذا غَشِيه، وذي عُبِّية بضم العين وتشديد الباء الموحدة، أي: مَلِكٍ ذي كبر، ورُجِبوا بالتخفيف، أي: عُظِّموا. اهـ منه. وفي الفائق (عبب): العُبِّيَّة: الكبر، من فُعِّيلَة أو فُعُّولَة، من باب عُباب الماء، وهو ارتفاعه.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ مُقَاسُو حرِّها على ما قال الخليل. وقيل: داخلون فيها.

و«ثم» قيل: لتراخي الرتبة، لكنْ بناءً على ما عندهم، فإنَّ صُلِيَّ الجحيم عندهم أشدُّ من حجابهم عن ربِّهم عز وجل، وأما عند المؤمنين ـ لاسيما الوالهين به سبحانه منهم ـ فإنَّ الحجاب عذابٌ لا يدانيه عذاب.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم تقريعاً وتوبيخاً من جهة الخَزَنةِ أو أهلِ الجنة ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ فذوقوا عذابه.

﴿كَلَّا﴾ تكريرٌ للردع السابق في قوله تعالى: (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ) إلخ ليُعقب بوعد الأبرار كما عقَّب ذاك بوعيد الفجَّار، إشعاراً بأنَّ التطفيف فجورٌ والإيفاءَ برٌّ.

وقيل: ردعٌ عن التكذيب، فلا تكرار.

﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾ الكلامُ نحوُ ما مرَّ في نظيره، بيد أنهم اختلفوا في «عليين» على وجهٍ آخر غيرِ اختلافهم في «سجِّين»، فقال غير واحد: هو علمٌ لديوان الخير الذي دوِّن فيه كلُّ ما عملته الملائكة وصُلَحاء الثقلين، منقولٌ من جَمْع عِلِّيٍّ فِعِّيل من العلو كسجِّين من السَّجْنِ، سمِّي بذلك إمَّا لأنه سببُ الارتفاع إلى أعالي درجات الجنان، أو لأنه مرفوعٌ في السماء السابعة أو عند قائمةِ العرش اليمنى مع الملائكة المقرَّبين عليهم السلام تعظيماً له.

وقيل: هو المواضع العَلِيَّة، واحدُه عِلِّيٌّ، وكان سبيله أن يقال: عِلِّية، كما قالوا للغرفة: عِلِّية، فلمَّا حذفوا التاء عوَّضوا عنها الجمعَ بالواو والنون، وحكي ذلك عن أبي الفتح بن جنِّي(١).

وقيل: هو وصفٌ للملائكة ولذلك جمع بالواو والنون.

وقال الفرَّاء: هو اسمٌ موضوع على صيغة الجمع، ولا واحدَ له من لَفْظِه

---

(١) حكاه عنه أبو حيان في البحر ٨/ ٤٤٢، وعنه نقل المصنف، وكلام ابن جني في كتابه سرّ صناعة الإعراب ٢/ ٦٢٥.

كعشرين وثلاثين، والعربُ إذا جمعت جمعاً ولم يكن له بناءُ واحدٍ ولا تثنيةٌ أطلقوه في المذكَّر والمؤنَّث بالواو والنون[١].

﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ صفةٌ أخرى لـ «كتاب»، أي: يَحْضُرونه، على أنَّ «يشهد» من الشهود بمعنى الحضور، وحضورُه كنايةٌ عن حفظه في الخارج. أو: يشهدون بما فيه يوم القيامة، على أنه من الشهادة. وعلى الوجهين المراد بـ «المقرَّبين» جمعٌ من الملائكة عليهم السلام، كذا قالوا.

وأخرج عبد بن حميد[٢] من طريق خالد بن عَرْعَرة وأبي عجيل أنَّ ابن عباس سأل كعباً عن هذه الآية، فقال: إنَّ المؤمن يَحْضُره الموت، ويَحْضُره رسلُ ربِّه عز وجل، فلا هم يستطيعون أن يؤخِّروه ساعةً ولا يعجِّلوه، حتى تجيءَ ساعتُه، فإذا جاءت ساعتُه قبضوا نَفْسَه فدفعوه إلى ملائكة الرحمة فأَرَوْه ما شاء الله تعالى أن يُرُوه من الخير، ثم عَرَجوا بروحه إلى السماء، فيشيِّعه من كلِّ سماءٍ مقرَّبوها، حتى ينتهوا به إلى السماء السابعة، فيضعونه بين أيديهم ولا ينتظرون به صلاتكم عليه، فيقولون: اللهم هذا عبدُك فلانٌ قبضنا نَفْسَه ـ ويَدْعون له بما شاء الله تعالى أن يَدْعوا له ـ فنحن نحبُّ أن تُشهِدَنا اليوم كتابَه. فيُنْشَر كتابُه من تحت العرش فيثبتون اسمَه فيه وهم شهودٌ، فذلك قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ وسأله عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ الآيةَ فقال: إنَّ العبد الكافر يحضره الموتُ ويحضُره رسلُ ربِّه سبحانه، فإذا جاءت ساعتُه قبضوا نفسه فدفعوه إلى ملائكة العذاب فأَرَوْه ما شاء الله تعالى أنْ يُرُوه من الشرِّ، ثم هبطوا به إلى الأرض السفلى وهي[٣] سجِّين، وهي آخِرُ سلطان إبليس فأثبتوا كتابه فيها، الحديثَ.

وفي بعض الأخبار ما ظاهرُه أنَّ نفس العمل يكون في سجِّينٍ ويكون في علِّيين؛ فقد أخرج ابن المبارك عن ضَمْرةَ[٤] بن حبيبٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٧، والبحر ٨/ ٤٤٢.
(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٧.
(٣) في (م): وهو.
(٤) في الأصل: صخرة، وفي (م): صخرت، والصواب ما أثبتناه.

«إنَّ الملائكة يرفعون أعمالَ العبد من عباد الله تعالى يَسْتَكْثرونه ويزكُّونه، حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله تعالى من سلطانه، فيوحي الله تعالى إليهم: إنَّكم حفظةٌ على عمل عبدي وأنا رقيبٌ على ما في نفسه، إنَّ عبدي هذا لم يُخْلِصْ لي عملَه فاجعلوه في سجِّين. ويصعدون بعمل العبد يستقلُّونه ويستحقرونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله تعالى من سلطانه، فيوحي الله تعالى إليهم: إنكم حفظةٌ على عمل عبدي وأنا رقيبٌ على ما في نفسه، إنَّ عبدي هذا أَخْلَصَ لي عملَه فاجعلوه في علِّيين»[1]. وبأدنى تأويلٍ يَرْجِعُ إلى ما تضمَّنته الآية، فلا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ شروعٌ في بيان محاسن أحوالهم إثر بيانِ حالِ كتابهم، والجملة مستأنفةٌ استئنافاً بيانيًّا، كأنه قيل: هذا حالُ كتابهم، فما حالُهم؟ فأجيبَ بما ذُكر، أي: إنهم لفي نعيم عظيم.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي: على الأسرَّة في الحِجَال[2]، وقد تقدم تمامُ الكلام فيها.

﴿يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: إلى ما شاؤوا من رغائب مناظر الجنة، وما تَحْجُبُ الحِجَالُ أبصارَهم.

وقال ابن عباس وعكرمةُ ومجاهد: إلى ما أعدَّ الله تعالى لهم من الكرامات.

وقال مقاتل: إلى أهل النار أعدائهم. ولم يَرْتَضِه بعضٌ ليكون ما في آخر السورة تأسيساً.

وقيل: ينظر بعضهم إلى بعضٍ فلا يُحجَبُ حبيبٌ عن حبيبه.

وقيل: النظر كنايةٌ عن سَلْبِ النوم، فكأنه قيل: لا ينامون، وكأنه لدَفْعِ توهُّم النوم من ذكر الأرائك المعدَّة للنوم غالباً، وفيه إشارةٌ إلى أنه لا نومَ في الجنة

---

(١) الزهد لابن المبارك (٤٥٢)، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في العظمة (٥٢٢)، كلاهما من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة به. وابن أبي مريم ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب، كما أن الخبر مرسل.

(٢) جمع حَجَلة، وهو مثل القبة يتخذ للعروس، يزيَّن بالثياب والستور، ويرخى على السرير، قال الشهاب: يُسمَّى بديارنا ناموسية. حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٨، ومعجم متن اللغة (حجل).

كما وردت به الأخبار[١]؛ لِمَا فيه من زوال الشعور وغفلةِ الحواس، إلى غير ذلك مما لا يناسبُ ذلك المقامَ. وعليه يكون قوله سبحانه: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤﴾ - أي: بهجةَ النعيم ورونَقَه - لنفي ما يُوْهِمه سلبُ النوم من الضعف وتغيُّرِ بهجة الوجه كما في الدنيا، وهو وجهٌ لا يَعْرِفُ فيه الناظر نضرةَ التحقيق.

والخطابُ في «تَعْرِفُ» لكلِّ مَن له حظٌّ من الخطاب؛ للإيذان بأنَّ ما لهم من آثار النعمة وأحكامِ البهجة بحيث لا يختصُّ براءٍ دون راءٍ. وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق وطلحةُ وشيبةُ ويعقوبُ: «تُعْرَفُ» مبنيًّا للمفعول «نضرةُ» رفعاً على النيابة عن الفاعل[٢].

وجوَّز بعضهم أن يكون نائبُ فاعلِ «تُعرف» ضميرَ «الأبرار»، و«في وجوههم نضرة» مبتدأ وخبر، كأنه قيل: تُعرف الأبرارُ بأنَّ في وجوههم نضرة النعيم، وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وقرأ زيد بن عليٍّ كذلك إلَّا أنه قرأ: «يُعْرَفُ» بالياء[٣]؛ إذ تأنيثُ «نضرة» مجازيٌّ.

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ قال الخليل: هو أجودُ الخمر. وقال الأخفش والزجَّاج: الشراب الذي لا غشَّ فيه[٤]؛ قال حسان:

يَسْقُونَ مَن وَرَدَ البريصَ عليهمُ   بَرَدَى يصفَّقُ بالرحيق السَّلْسَلِ[٥]

وفسِّر هاهنا بالشراب الخالص مما يكدِّرُ حتى الغَوْل[٦].

﴿مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ أي: مختومٌ أوانيه وأكوابُه بالمسك مكانَ الطين كما روي عن مجاهدٍ، وذُكر أنَّ طين الجنة مسكٌ معجونٌ. والظاهرُ أنَّ الختام

(١) ينظر حديث جابر ﷺ عند البزار (٣٥١٧ - كشف)، وسلف ٢٥/ ١٣٧.
(٢) النشر ٢/ ٣٩٧ عن أبي جعفر ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٤٣٨.
(٣) البحر ٨/ ٤٤٢.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٠٠، والكلام من البحر ٨/ ٤٣٨.
(٥) ديوان حسان ص١٨٠، والبحر ٨/ ٤٣٨، وسلف عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأعراف.
(٦) الغَوْل: السُّكْر. القاموس (غول).

ما يُخْتَمُ به، وأنَّ الختم على حقيقته، وكذا إسناده، وقولنا: مختومٌ أوانيه.. إلخ، ليس لأنَّ الإسناد مجازيٌّ، بل لأن الختم على الشيء - أعني الاستيثاقَ منه بالختم - طريقُه ذلك.

وخُتم اعتناءً به وإظهاراً لكرامة شاربه، وكان ذلك بما هو على هيئة الطين ليكون على النهج المألوف، ويجوز أن يكون ذلك تمثيلاً لكمال نفاسته، وإلا فليس ثمةَ غبارٌ أو ذبابٌ أو خيانةٌ ليصانَ عن ذلك بالختم.

وقال ابن عباس وابن جبير والحسن: المعنى: خاتمتُه ونهايتُه رائحةُ مسكٍ إذا شُرب، أي: يجدُ شاربُه ذلك عند انتهاء شربه. وكأن ذلك لأنَّ اشتغال الذائقة بكمال لذته تمنع عن إدراك الرائحة، فإذا انقطع الشربُ أُدرِكَتْ، وإلا فالرائحةُ لا تختصُّ بالانتهاء.

وقيل: المعنى: ذو نهايةٍ، نهايتُه وما يبقى بعد شربه ويَرْسُبُ[(١)] في أوانيه مسكٌ، وليس كشراب الدنيا نهايتُه وما يَرْسبُ في إنائه طينٌ أو نحوه. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ الرحيق يُمزج بالكافور ويُختم مزاجُه بالمسك، فالمعنى: ذو ختامٍ، ختامُ مزاجُه مسكٌ. وهو - مع كونه خلافَ الظاهر، وفيما بعدُ ما يُبْعِدُه في الجملة - يحتاج إلى نقلٍ يعوَّلُ عليه.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والنخعيُّ والضحاك وزيد بن عليٍّ وأبو حيوة وابنُ أبي عبلة والكسائيُّ: «خاتَمه» بألفٍ بعد الخاء وفَتْحِ التاء[(٢)]، والمراد ما يُختم به أيضاً، فإنَّ فاعلاً بالفتح يكون أيضاً اسمَ آلةٍ كالقالَب والطابَع، لكنه سماعيٌّ.

وعن الضحاك وعيسى، وأحمد بن جبير الأنطاكيِّ عن الكسائي كَسْرُ التاء[(٣)]، أي: آخِرُه رائحةُ مسكٍ.

---

(١) في (م): ويشرب، هو تصحيف.

(٢) التيسير ص٢٢١، والنشر ٢/ ٣٩٩ عن الكسائي، والكلام من البحر ٨/ ٤٤٢.

(٣) البحر ٨/ ٤٤٢، وهي خلاف المشهور عن الكسائي، وقال صاحب النشر ٢/ ٣٩٩: ولا خلاف عنهم في فتح التاء.

والجمَلُ السابقة، أعني «على الأرائك ينظرون» و«تعرف في وجوههم» إلخ و«يسقون» إلخ، قيل: أحوالٌ مترادفةٌ. وقيل: مستأنفاتٌ كجملةِ «إنَّ الأبرار» إلخ، وقعت أجوبةً للسؤال عن حالهم، والفصلُ للتنبيه على استقلالِ كلٍّ في بيان كرامتهم.

﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الرحيق، وهو الأنسبُ بما بعدُ، أو إلى ما ذكر من أحوالهم. وما فيه من معنى البُعْدِ للإشعار بعلوِّ مرتبته وبُعْدِ منزلته، وجوِّز أن يكون لكونه في الجنة.

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾، وقدِّم للاهتمام أو للحصر، أي: فليتنافس ولْيَرغَبْ فيه لا في خمورِ الدنيا، أو لا في غيره من ملاذِّها ونعيمها ﴿الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: الراغبون في المبادرة[1] إلى طاعة الله تعالى.

وقيل: أي: فلْيَعْمَلْ لأَجْلِه ـ أي: لأَجْلِ تحصيله خاصةً والفوزِ به ـ العاملون، كقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] أي: فلْيَسْتَبِقْ في تحصيل ذلك المتسابقون.

وأصل التنافس: التغالُبُ في الشيء النفيس، وأصله من النَّفْسِ لعزَّتها، قال الواحدي: نَفِسْتُ الشيءَ أَنْفَسُه نفاسةً، والتنافُسُ تفاعُلٌ منه، كأنَّ كلَّ واحدٍ من الشخصين يريد أن يستأثر به[2].

وقال البغوي[3]: أصلُه من الشيء النفيس الذي تحرصُ عليه نفوسُ الناس، ويريده كلُّ أحدٍ لنفسه، ويقال: نَفِسْتُ عليه بالشيء أَنْفَسُ نفاسةً: إذا بخلت به عليه.

---

(١) في الأصل: بالمبادرة.

(٢) ذكره عن الواحدي الرازي في تفسيره ٣١/ ١٠٠، وأبو السعود ٩/ ١٢٨، وعنه نقل المصنف. وفي تفسير الرازي: نفستُ عليه الشيء أنفسُه نفاسة: إذا ضننت به ولم تحبّ أن يصير إليه، والتنافس تفاعل. . . إلخ.

(٣) في تفسيره ٤/ ٤٦١.

وفي «مفردات» الراغب: المنافسةُ مجاهدةُ النفس للتشبُّه بالأفاضل واللُّحوقِ بهم من غير إدخالِ ضررٍ على غيره[1]. وهي بهذا المعنى مِن شَرَفِ النفس وعلوِّ الهمة، والفرقُ بينها وبين الحسد أظهرُ من أنْ يَخْفَى.

واستشكل ذلك التعلُّق بأنه يلزم عليه دخولُ العاطف على العاطف؛ إذ التقدير: وفليتنافس في ذلك.

وأجيبَ بأنه بتقدير القول، أي: ويقولون لشدة التلذُّذ من غير اختيارٍ: في ذلك فليتنافس المتنافسون، أي: في الدنيا، على معنى أنه كان اللائقُ بهم أن يتنافسوا في ذلك.

وقيل: الكلام على تقدير حرف الشرط والفاءُ واقعةٌ في جوابه، أي: وإنْ أُريدَ تنافسٌ فليتنافس في ذلك المتنافسون، وتقديمُ الظرف ليكون عِوَضاً عن الشرط في شغل حيِّزه، وهو أنفسُ ممَّا تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ عطفٌ على «ختامُه مسكٌ»، صفةٌ أخرى لـ «رحيق» مثلُه، وما بينهما اعتراضٌ مقرِّرٌ لنفاسته، و«تسنيم» عَلَمٌ لعينٍ بعينها في الجنة كما روي عن ابن مسعود. وعن حذيفة [بن] اليمان أنه قال: عينٌ من عَدْنٍ[2]. سمِّيتْ بالتسنيم الذي هو مصدرُ سَنَمَه: إذا رفعه، إمَّا لأن شرابها أرفعُ شرابٍ في الجنة على ما روي عن ابن عباس، أو لأنها تأتيهم من فوقٍ على ما روي عن الكلبي. ورُوي أنها تجري في الهواء متسنِّمةً فتنصبُّ في أوانيهم. وقيل: سميت بذلك لرِفْعةِ مَن يشرب بها.

ولا يلزمُ من كونه عَلَماً لِمَا ذُكر مَنْعُ صرفه للعَلَمية والتأنيث لأنَّ العين مؤنَّثةٌ؛ إذ هي قد تذكَّر بتأويل الماء أو نحوه.

و«من» بيانيةٌ أو تبعيضيةٌ، أي: ما يمزج به ذلك الرحيقُ هو تسنيمٌ، أي: ماءُ تلك العين، أو بعضُ ذلك، وجوِّز أن تكون ابتدائيةً.

---

(١) مفردات الراغب (نفس).

(٢) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٨، وما بين حاصرتين منه.

﴿عَيْنًا﴾ نصبٌ على المدح. وقال الزجَّاج: على الحال من «تسنيم»[(١)]. قيل: وصحَّ[(٢)] كونُه حالاً مع جموده لوَصْفِه بقوله تعالى ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾، أو لتأويله بمشتقٍّ كجارية. وأنت تعلم أنَّ الاشتقاق غيرُ لازمٍ.

والباء إما زائدةٌ، أي: يشربها. أو بمعنى «مِن»، أي: يشرب منها. أو على تضمين «يشرب» معنى يروي، أي: يشرب راوين بها ـ أو: يُرْوَى بها شاربين ـ المقرَّبون. أو صلة الالتذاذ، أي: يشرب ملتذًّا بها. أو الامتزاج، أي: يشرب الرحيقَ ممتزجاً بها. أو الاكتفاء، أي: يشرب مكتفين بها. أوجُهٌ ذكروها.

وفي كونها صلةَ الامتزاج مقالٌ، فقد قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وأبو صالح: يشربُ بها المقرَّبون صرفاً، وتُمزجُ للأبرار.

ومذهبُ الجمهور أنَّ «الأبرار» هم أصحاب اليمين، وأنَّ «المقربين» هم السابقون، وكأنهم إنما كان شرابهم صرفَ التسنيم لاشتغالهم عن الرحيق المختوم بمحبة الحيِّ القيوم، فهي الرحيقُ التي لا يقاس بها رحيقٌ، والمدامةُ التي تَوَاصَى على شُربها ذوو الأذواق والتحقيق:

على نفسه فليَبْكِ مَن ضاع عمرُه ... وليس له منها نصيبٌ ولا سهم[(٣)]

وقال قوم: الأبرار والمقرَّبون في هذه السورة بمعنًى واحدٍ يشمل كلَّ مَن نعِّم في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ إلخ حكايةٌ لبعض قبائح مشركي قريش: أبي جهلٍ، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأشياعهم، جيء بها تمهيداً لذكر بعض أحوال الأبرار في الجنة.

﴿كَانُوا۟﴾ أي: في الدنيا كما قال قتادة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ كانوا يستهزؤون بفقرائهم كعمَّارٍ وصهيبٍ وخبَّابٍ وبلالٍ وغيرِهم من الفقراء.

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٠١.
(٢) في الأصل: وقيل صح.
(٣) سلف في مقدمة المصنف.

وفي «البحر»: روي أنَّ عليًّا كرم الله تعالى وجهه وجمعاً من المؤمنين معه مرُّوا بجَمْعٍ من كفَّار مكة، فضحكوا منهم واستخفُّوا بهم، فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ إلخ قبل أن يَصِلَ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه إلى رسول الله ﷺ[1].

وفي «الكشاف» حكايةُ ذلك عن المنافقين، وأنهم قالوا: ربنا اليوم الأصلع[2]. أي: سيدنا، يعنون عليًّا كرم الله تعالى وجهه، وإنما قالوه استهزاءً، ولعل الأول أصحُّ.

وتقديم الجارِّ والمجرور إمَّا للقصر إشعاراً بغايةِ شناعةِ ما فعلوا، أي: كانوا من الذين آمنوا يضحكون مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك، على منهاج قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠] أو[3] لمراعاة الفواصل.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ﴾ أي: المؤمنون ﴿بِهِمْ﴾ أي: بالذين أجرموا وهم في أنديتهم ﴿يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: يغمز بعضهم بعضاً، ويُشيرون بأعينهم استهزاءً بالمؤمنين.

وإرجاعُ ضمير «مرُّوا» للمؤمنين وضمير «بهم» للمجرمين هو الأظهر الأوفق بحكاية سبب النزول، واستظهر أبو حيان العكسَ معلِّلاً له بتناسُق الضمائر[4].

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ أي: المجرمون ورجعوا من مجالسهم ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ ملتذِّين باستخفافهم بالمؤمنين، وكأنَّ المراد بذلك الإشارةُ إلى أنهم يَعدُّون صنيعهم ذلك من أَحسن ما اكتسبوه في غيبتهم عن أهلهم، أو إلى أنَّ له وقعاً في قلوبهم، ولم يفعلوه مراعاةً لأحد، وإنما فعلوه لحظِّ أنفسهم.

وقيل: فيه إشارةٌ إلى أنهم كانوا لا يفعلون ذلك بمَرْأًى من المارِّين بهم، ويكتفون حينئذٍ بالتغامز.

وقرأ الجمهور: «فاكهين» بالألف[5]، فقيل: هما بمعنًى. وقيل: «فكهين»:

---

(١) البحر ٨/ ٤٤٣.
(٢) الكشاف ٤/ ٢٣٣، وفيه: رأينا، بدل: ربنا.
(٣) قوله: أو، ساقط من (م).
(٤) البحر ٨/ ٤٤٣.
(٥) التيسير ص٢٢١، والنشر ٢/ ٢٥٤-٢٥٥ و٣٩٩. وقرأ «فَكِهين» بغير ألف حفص وأبو جعفر.

أَشِرينَ، وقيل: فَرِحين. و«فاكهين» قيل: متفكِّهين، وقيل: ناعمين، وقيل: مازحين[١].

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ وإذا رأوا المؤمنين أينما كانوا ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ يعنون جنسَ المؤمنين مطلقاً لا خصوصَ المرئيين منهم، والتأكيد لمزيد الاعتناء بسبِّهم.

﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ جملةٌ حاليةٌ من ضمير «قالوا»، أي: قالوا ذلك والحالُ أنهم ما أُرسلوا من جهة الله تعالى على المؤمنين موكَّلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم، ويهيمنون على أعمالهم، ويشهدون برشدهم وضلالهم. وهذا تهكُّمٌ واستهزاءٌ بهم، وإشعارٌ بأنَّ ما اجترؤوا عليه من القول من وظائف مَن أُرسل من جهته تعالى.

وجوِّز أن يكون من جملة قول المجرمين، والأصل: وما أرسلوا علينا حافظين، إلا أنه قيل: «عليهم» نقلاً بالمعنى، على نحو: قال زيد ليفعلنَّ كذا، وغرضُهم بذلك إنكارُ صدِّ المؤمنين إياهم عن الشرك ودعائهم إلى الإيمان.

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: المعهودون من الفقراء ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: من المعهودين، وجوِّز التعميمُ من الجانبين ﴿يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ حين يرونهم أذلَّاء مغلولين قد غَشِيتْهم فنونُ الهوان والصَّغَارِ بعد العزِّ والكبر، ورَهَقَهم ألوانُ العذاب بعد التنعُّم والترفُّه.

والظرف والجارُّ والمجرور متعلِّقان بـ «يضحكون»، وتقديم الجارِّ والمجرور قيل: للقَصْرِ تحقيقاً للمقابلة، أي: واليوم هم من الكفار يضحكون لا الكفارُ منهم كما كانوا يفعلون في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ حالٌ من فاعل «يضحكون»، أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من سوء الحال.

---

(١) في الأصل: مارحين، وفي (م): مادحين، والمثبت من تفسير أبي السعود ٩/ ١٢٩ وهو الصواب؛ قال القشيري كما في تفسير القرطبي ١٩/ ١١٨: فاكهين: لاهين مازحين، يقال: إنه لفاكه، أي: مزَّاح، وفيه فكاهة، أي: مزح.

وقيل: يُفتح للكفار بابٌ إلى الجنة فيقال لهم: هلمَّ هلمَّ. فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم، يُفْعل ذلك مراراً حتى إنَّ أحدهم يقال له: هلم هلم. فما يأتي من إياسه، ويضحك المؤمنون منهم(١).

وتعقِّب بأنَّ قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يأباه؛ فإنه صريحٌ في أنَّ ضحك المؤمنين منهم جزاءٌ لضحكهم منهم في الدنيا، فلا بدَّ من المجانسة والمشاكلة حتماً. والحقُّ أنه لا إباءَ كما لا يخفى.

والتثويبُ والإثابة: المجازاة، ويقال: ثوَّبه وأثابه: إذا جازاه، ومنه قول الشاعر:

سأَجْزيكِ أو يَجْزيكِ عنِّي مثوِّبٌ   وحَسْبُكِ أن يُثْنَى عليكِ وتُحْمَدي(٢)

وظاهر كلامهم إطلاقُ ذلك على المجازاة بالخير والشر، واشتهر بالمجازاة بالخير، وجوِّز حملُه عليه هنا على أنَّ المراد التهكُّم، كما قيل به في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤] و﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] كأنه تعالى يقول للمؤمنين: هل أثبنا هؤلاء على ما كانوا يفعلون كما أثبناكم على ما كنتم تعملون، فيكون هذا القول زائداً في سرورهم لِمَا فيه من تعظيمهم والاستخفافِ بأعدائهم. والجملة الاستفهامية حينئذٍ معمولةٌ لقولٍ محذوفٍ وقع حالاً من ضمير «يضحكون» أو من ضمير «ينظرون»، أي: يضحكون أو ينظرون مقولاً لهم: هل ثوِّب.. إلخ، ولم يتعرَّض لذلك الجمهور.

وفي «البحر»: الاستفهام لتقرير المؤمنين، والمعنى: قد جُوزيَ الكفار ما كانوا.. إلخ. وقيل: «هل ثوِّب» متعلِّقٌ بـ «ينظرون» والجملةُ في موضع نصبٍ به بعد إسقاط حرف الجرِّ الذي هو «إلى»(٣). انتهى.

---

(١) أخرج نحوه ابن المنذر كما في الدر المنثور ١/ ٣١ من طريق الكلبي عن أبي صالح.
(٢) البيت لأوس بن حجر، وهو في ديوانه ص٢٧، والكشاف ٤/ ٢٣٣، والبحر ٨/ ٤٤٣.
(٣) البحر ٨/ ٤٤٣.

و«ما» مصدريةٌ، أو موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ، أي: يفعلونه، والكلامُ بتقديرِ مضافٍ، أي: ثوابَ أو جزاءَ ما كانوا.. إلخ. وقيل: هو بتقدير باء السببية، أي: هل ثوّب الكفار بما كانوا.

وقرأ النحويان وحمزة وابن محيصن بإدغام اللام في الثاء[1]، والله تعالى أعلم.

(١) البحر ٨/ ٤٤٣، وهي في التيسير ص٢٢١ عن الكسائي وحمزة وهشام.